



وزارة الثقافة
الهيئة العامة لقصور الثقافة
سلسلة
الفلسفة والعلم
(١)

قضايا العلوم الإنسانية إشكالية المنهج

بأقلام

د. علي عبد المعطى	د. أحمد أنور أبو النور
د. محمد علي الكردي	د. حسن حنفي
د. مصطفى عمر	د. حسن وجيه
د. ناجي بدر	د. عبد الرحمن العيسوي

إشراف وتقديم
دكتور / يوسف زيدان

تصميم الغلاف : أميرة فهمي

كتاب الفلسفة والعلم

رئيس مجلس الإدارة
ورئيس التحرير
حسين مهـرـان

المشرف العام
د. يوسف زيدان

المراسلات باسم مدير التحرير
على العنوان التالي
١٦ شارع أمين سامى
القصر العيني - القاهرة
رقم بريدى ١١٥٦١

المحتويات

- تقديم :

- د. يوسف زيدان ٥
- البحث عن منهج للعلوم الانسانية
- د. على عبد المعطى محمد ١٥
- المنهج الفلسفى
- د. حسن حنفى ٤٢
- المنهج فى دراسة الحضارات
- د. محمد على الكردى ٦١
- المنهج الرياضى فى العلوم الاجتماعية
- د. ناجى بدر ٧٧
- اشكالية المنهج فى الانثروبولوجيا
- د. مصطفى عمر ١٠٤
- مناهج البحث فى علم النفس الحديث (رؤية نقدية)
- د. عبد الرحمن العيسوى ١٣٣
- منهجية علم التفاوض الاجتماعى والسياسى (رؤية امبريقية)
- د. حسن وجيه ١٥٤
- ضد المنهج : إطلالة على أزمة العقلانية الغربية المعاصرة
- د. أحمد أنور أبو النور ١٨٥

تقديم

المشكلة هي المنهج.. ذلك ما اعتقده وأقول به، ليس فقط فيما يتعلق بالعلوم (الإنسانية) وإنما في العلوم كلها؛ بل المنهج هو المشكلة المهمة في شتى ضروب واقعنا المعاصر: فكريا واقتصاديا وسياسيا واجتماعيا.. وعلميا أيضا .

إن مشروع النهضة في بلادنا، ذلك المشروع الواعد بالكثير منذ عصر الطهطاوى إلى اليوم؛ لم يثمر بقدر ما وعد، ولم يتحقق منه إلا القدر القليل.. وما ذلك التأخر في الإثمار، والتعثر في السعى؛ إلا لأسباب من أهمها: افتقاد المنهج! فالأمة خلال القرنين الماضيين تتحرك بقوة، بيد أنها حركة بلا منهج، فحتى الآن لم تجب على السؤال الأول في مشروع النهضة : هل نهض ذاتيا ، أم نعتمد على الغرب؟ وإذا جمعنا بين الأصالة والمعاصرة، فعلى أي نحو يكون الجمع؟ وما الذي يؤخذ أو يترك من التراث ومن الغرب؟! تلك هي المنطلقات الأساسية للنهضة، وذلك هو السؤال المحورى فيها .. ومع ذلك، فنحن حتى الآن في تشتت الرؤى والتخبط بين جملة إجابات.. وبالرغم من أن السؤال واحد، وأن السؤال نصف الإجابة؛ إلا أننا لم نتفق على النصف الآخر من إجابة هذا السؤال الواحد، المشروع، الموضوع بقوة أمام وعينا المعاصر منذ قرابة القرنين؛ بل الأعجب أن البدايات اشتلمت على رؤية منهجية أوضح من رؤى الأواسط

والنهايات.. ففي البدايات كانت خطوات الطهطاوى وخير الدين التونسي تسير وفق رؤية منهجية واضحة. ملخصها : أن هذه الأمة ، كى تنهض ، عليها الحفاظ على جوهر حضارتها (اللغة - الدين - التنشئة الاجتماعية) وتدعيم هذا الجوهر ، وحفظه، والحفاظ عليه، بعناصر متقدمة من الغرب (العلم - النظم والإدارة - التصنيع) وبهذه الروح كتب التونسي «أقوم المسالك فى معرفة الممالك» وكتب الطهطاوى «تلخيص الإبريز» و«المرشد الأمين» وغير ذلك من مؤلفاته وترجماته.

واستمرت هذه الرؤية المنهجية ، واضحة ، فى الجيل التالى للطهطاوى والتونسي.. لكنه، ومع ابتداء القرن العشرين ، غامت الرؤية وعاد فريق منا إلى الماضى بكل قوته، وطرح الحاضر، وعاده.. وفريق آخر ألقى بنظره إلى الغرب، وقاطع ماضينا، واعتبر الغرب غاية أملنا ومنتهاه. وسرعان ما اشتبك الفريقان، خلال القرن الحالى المسمى زوراً «قرن التنوير» ليحتدم الاشتباك بين جماعات نتأت فجأة: السلفية والعلمانية، الرجعية والتقدمية، المتغريون والمتأسلمون ، القوميون والنفطيون، السياسيون والعلميون.. الخ، ولكل فرقة منهم شرعة ومنهاج؛ ومع اشتباك الفرق، بل مع احتدام الاشتباك، انشغل كل فريق بالآخر، وادعى أن عنده (الحل) وتعالى فيما بينهم المهاترة، فعلت بينهم درجة المغايرة.. وصار أهل كل فريق بما لديهم فرحون، بينما الواقع العام يزداد حزناً، والخطو العام متفرق بين الأقوال والأهواء.. وتلاشى المنهج .

والمنهج هو المشكلة.

والمنهج يعنى : أسلوبا فى التفكير، وخطوات علمية منظمة تهدف إلى حل مشكلة أو معالجة أمر من الأمور.. وهو برنامج عمل فى البحث العلمى، وفى نقل النظرى إلى التطبيق، وفى التخطيط للمستقبل وفق نظرة بصيرة. فلا بد - إذن - من طرح إشكالية المنهج .

وإشكال المنهج، بعمومه، إشكال واسع الأبعاد. والطريق إلى تحديد (المنهج) فى شتى أمورنا المعاصرة ، طريق طويل.. طريق طويل نقطعه، وقد يقطعنا الزمان إن لم نقطعه، لنصل فى النهاية إلى منهج واضح يرشد خطواتنا وينظم فكرنا ويجعلنا - على نحو مثير - نستبصر الواقع ونستشرف المستقبل. ومن هنا كان طرحنا لقضية (المنهج فى العلوم الإنسانية) باعتبارها أحد أهم القضايا الإشكالية المتعلقة بهذه العلوم من جهة، وباعتبارها- من الجهة الأخرى - خطوة مهمة على طريق استكشاف منهج عام لهذه الأمة التى عانت طيلة العقود الماضية من تشتت منهجى لا حد له.

وقد تفضل الدكتور / على عبد المعطى محمد بصياغة (ورقة العمل) فى هذه الإشكالية المحورية، فعرض فيها لمفهوم العلوم الإنسانية وما تعانیه من أزمة منهجية اتضحت معالمها شيئا فشيئا، حتى وصل الأمر إلى ما هو «مدهش حقا أن نجد من بين العلوم الإنسانية من يتخذ لنفسه أكثر من منهج يتعارض الواحد منها مع

الآخر تعارضاً جذرياً، كاتخاذ منهج التحليل النفسى والمنهج التجريبي والقياسى فى علم النفس، وكاتخاذ المنهج التاريخى والمنهج التجريبي الإحصائي فى علم الاجتماع» وهنا «ظهرت صيحة أخذت تتعالى بين علماء المناهج ، وتم صياغتها على النحو التالى: ألا يمكن أن نجد منهاجاً واحداً للعلوم الإنسانية؟»

وقد طرح الدكتور / على عبد المعطى رؤيته المستندة، فى الإجابة على هذا السؤال الأخير، على مقولة (الفهم) التى حددتها المدرسة الألمانية، وأورد عليها تعقيبات وملاحظات، ليظل ملف القضية مفتوحاً أمام أصحاب المشكلة، أعنى المشتغلين بالعلوم الإنسانية على اختلاف تخصصاتهم .

وتوالى من بعد ذلك الرؤى، ليعرض الدكتور/ حسن حنفى قضية (المنهج الفلسفى) فيشير إلى اختلاف المناهج باختلاف الشعوب وطرائق تفكيرها، وكيف تطورت الحركة المنهجية من خلال سمات عامة للوعى الأوروبى عبر تاريخه الطويل، ليقف بعد ذلك عند تطور الرؤية المنهجية فى الحضارة العربية الإسلامية وتنوعها من عقلانية عند الفلاسفة إلى «جدلية عند المتكلمين، نوقية عند الصوفية، أصولية عند الفقهاء...» وهو يرى أن الخروج من الأزمة المنهجية المعاصرة - على صعيد الفكر الفلسفى- يكمن فى التنظير المباشر للواقع وفقاً لقواعد أهمها: إعمال العقل وإزاحة اللامعقول! وهو ينتهى إلى القول: «إن التحدى الآن ليس هو الأزمة، بل المدخل إليها . فالأزمة فى المنهج قبل أن تكون فى الموضوع» ولأن من طبيعة الفلسفة أن تصوغ

الأسئلة الكبرى - ربما بأكثر مما تقدم الإجابات- فقد أعاد الدكتور حسن حنفي طرح نفس السؤال/ المشكلة الذي طرحه من قبل شكيب أرسلان: لماذا تخلف المسلمون وتقدم غيرهم؟ ليظل الملف مفتوحاً..

ويدخل الدكتور محمد على الكردى إلى القضية من باب تخصصه ، فيسهم فى هذا الملف ببحثه (المنهج فى دراسة الحضارات) فيدهشنا تناوله للموضوع حين يكثر - وهو استاذ اللغة والحضارة الفرنسية - من الاستشهاد بأبيات الشعر العربى القديم، ليخلص إلى رأى مؤداه أن : بالرغم من بروز مفهوم «الحضارات» خلال القرن التاسع عشر، فإننا لانجد أى اتفاق بين المؤرخين على تحديد معنى مصطلح «الحضارة» وهو يؤكد ما يقرره بشواهد من تعريفات متضاربة لأعلام الدراسين للحضارات من أمثال: جيزو شبلنجر ، توينبى.. ويختتم باحثنا عرضه للقضية بأن علينا: كشف وإنتاج الحقائق الكامنة فى تاريخ الحضارات عن طريق بناء المناهج والمداخل وتحديد الرؤى الجديدة والمتغيرة وفقاً لاهتمامات العصر واستثمارا لكل ضروب المعرفة المتاحة من غير خوف أو حواجز دفاع مصطنعة ! هكذا تحدث الدكتور محمد الكردى، فهل تراه يريد تحريرنا من وهم «العلمية» ليدخلنا مدخلا نفعياً، وجدلياً، ديناميكياً، فى درس الحضارة؟ بل بالأحرى: فى الاستفادة من درس الحضارة؟ وينتصر الدكتور/ ناجى بدر للرياضيات، واصفا إياها بأنها «لغة العلم» بل يؤكد أنها «اللغة الوحيدة التي لا تتأثر بأي تحيزات تنبع من المضمون الذى تستخدم فيه» وهو يبدأ ورقته البحثية (المنهج

الرياضى فى العلوم الاجتماعية ببيان الفرق بين الاتجاه الكيفى والاتجاه الكمى، فينتقد الأول ويربط بينه وبين الأيديولوجية - الرأسمالية والاشتراكية - ويشرح الاتجاه الآخر، الكمى ، تفصيلا موضحا دعائمه ومقوماته وفوائده ونظرياته وحدود تطبيق المنهج الرياضى/ الكمى فى العلوم الاجتماعية، خاصة فى عصر الحاسبات الآلية.. وهو يرى أن : استخدام الرياضيات فى العلوم الاجتماعية يمكن أن يحقق مزيدا من الاتفاق بين العلماء الاجتماعيين، بشرط الاعتماد على الأسلوب الإحصائي المناسب لموضوعات البحث، وبشرط رؤية الباحثين وإجادتهم فى استخدام الأساليب الإحصائية. وعن علم الإنسان (الأنثروبولوجيا) يتحدث الدكتور/ مصطفى عمر موضحا إشكالية المنهج فى هذا العلم الاجتماعى الشيق، من خلال عرضه التفصيلى لمناهج البحث الأنثروبولوجى وهو العرض الذى طوف فيه باحثنا بأرجاء المدارس والاتجاهات الأنثروبولوجية، منتهيا إلى حصر موجز لما يجب - منهجيا- اتباعه فى مجال الأنثروبولوجيا، وما هو متبع - فعلا- فى هذا المجال .

ويتفق الدكتور/ عبد الرحمن العيسوى مع الدكتور/ على عبد المعطى فى أهمية المنهج الكيفى ومناسبته لعلم النفس، وفى ورقته (عنوانها: مناهج البحث فى علم النفس الحديث، رؤية نقدية) يعرض لتطور طرق البحث، وأهم المناهج المستخدمة، وأساليب اختيار عينات البحوث، ثم ينقد أشهر هذه الطرق المنهجية (الاستبطان- الاسقاطية - الموضوعية العلمية) أعنى المنهج الرياضى - الذى أدى بعلم النفس

إلى «تحوله إلى عمل ألى ميكانيكى حرفى يتمثل فى استجلاب كمية من المعلومات من العقول الالكترونية، بعد دس ما يحصل عليه الباحث فى فم الكمبيوتر، ليحصل على كميات هائلة من الأرقام.. بعيدا من الواقع الميدانى»..

ومن علم النفس إلى علم جديد يحدثنا عنه الدكتور/ حسن وجيه فى بحثه (منهجية علم التفاوض الاجتماعى والسياسى، رؤية امبريقية) الذى يؤكد فيه مشروع التثام العلوم الاجتماعية من أجل تحليل ظاهرة التفاوض، وهو الالتئام الذى ينتج علما تمازجيا حديثا يسميه علم اللغويات السياسية، وهو ما اقترحه باحثنا من قبل فى رسالته للدكتوراة التى قدمها قبل سنوات بالولايات المتحدة الأمريكية؛ كما يقترح - أيضا- نموذجا منهجيا لتحليل مفهوم (القدرة) من منظور علم اللغويات وعلم العلاقات الدولية، وحدود استخدام هذا النموذج، والصعوبات التى تواجهه، وال حلول المطروحة لتجاوز هذه الصعوبات .

وأخيرا ، تخرج بحوث الكتاب من دائرة ثقافتنا (نحن) لتطل على ثقافة (الأخر) الغربى، من خلال بحث الدكتور/ أحمد أنور (ضد المنهج : إطلالة على أزمة العقلانية الغربية المعاصرة) ذلك أن الأمر يقتضى، ما دمنا بصدد الكلام عن قضية كبرى كهذه، أن ننظر فى واقع القضية هناك.. وقد استعار باحثنا عنوان كتاب شهير لبول فيرابند P. Feyerabend هو Against Method الذى يمثل موقفاً متطرفاً مضاداً للمنهج والعقلانية، ولكننا - من زاوية أخرى-

لا يمكن أن تتوحد مع الغرب في عمق شراسته التي يمارس بها نقد الذات محاولا تجاوز مشروع الحداثة الغربية، وهو المشروع الذي يعتقد الكثيرون من مفكرى الغرب أنه استنفذ أغراضه .

.. وكان مقررا أن أكتب بحثا لهذا الكتاب، عنوانه (المنهج والتصوف) ومنعنى عن ذلك أمران، الأول أن قضية المنهج فى التصوف قضية إشكالية متسعة المجال، فهناك إشكال المنهج فى النسق الصوفى ذاته، أعنى التصاعدية العروجية منع عالم الحس إلى عالم الحضرة الإلهية عبر السلم الروحى المعروف باسم «الأحوال والمقامات» وتلك نقطة مشكلة لأن النسق هائل الاتساع، حتى أن الصوفية تقول «الطرق إلى الله على عدد أنفاس البشر» وهذا أمر لا يمكن ضيقه منهجيا، بل إن «ال جذب» يلعب فيه دورا مهما.. وهو دور، ضد المنهج! وهناك إشكال المنهج فى دراسة التصوف، وتلك بدورها نقطة مشكلة لأن هذه الدراسة تتعدد مناهجها - بحسب ما ذكره الدكتور/ على سامى النشار فى مقدمة الجزء الثالث من كتابه، نشأة الفكر الفلسفى فى الإسلام - ومع هذه المناهج المتعددة، يظل «التلوق» أمرا لازما لدراسة التصوف، وهو - أيضا- أمر: ضد المنهج! أما المانع الآخر، فهو أنني سبق أن قدمت بحثا فى المؤتمر الثالث للجمعية الفلسفية المصرية (القاهرة، جامعة الأزهر ١٩٩٢) كان عنوانه: المنهج بين المتكلمين والصوفية. ولم أشأ هنا أن أكرر ما سبق، فالتكرار اجترار.. ونحن اليوم فى أشد الاحتياج للجدّة والابتكار واستشراف الآفاق الجديدة فى الفكر والسلوك .

وبعد.. فهذا عمل شرفت بالإشراف عليه؛ أوبالإحدى: التنسيق والإعداد له! ذلك أن المشاركين فيه، أغلبهم منى بمنزلة الأستاذ ، وهم صفوة مختارة من أعلام الثقافة فى واقعنا المعاصر؛ ولقد ساهموا «متضامنين» فى طرح قضية أراها من أهم القضايا المعروضة أمام وعينا المعاصر .

ولسوف تناقش بحوث هذا الكتاب فى الملتقى الأول للفلسفة والعلوم، الذى سينعقد بقصر ثقافة التنوق بسيدى جابر/ بالاسكندرية (يناير ١٩٩٦) ولعل المناقشات تثرى الاشتباك الفكرى المثمر بصدد هذه القضية التى يعالجها الكتاب.. وسوف تتواصل- بإذن الله - الجهود، فتستمر هذه السلسلة (الفلسفة والعلم) فى الصور تباعا، وتتوالى الملتقيات الفلسفية / العلمية حول موضوع كل كتاب جديد فى السلسلة بالاسكندرية .. تلك المدينة الغارقة فى بحار الثقافة منذ عهد البطالمة، حتى عصرنا الحالى ..

وتبقى كلمة شكر، للأستاذ/ حسين مهران رئيس الهيئة العامة لقصور الثقافة على تخصيصه هذه السلسلة من الكتب وتشريفى بالإشراف عليها.. وللأستاذ / محمد السيد عيد مدير الثقافة العامة بالهيئة لدعمه المستمر لهذه الفكرة حتى ظهرت إلى النور. وللأستاذة/ لىلى فهمى مديرة قصر التنوق بسيدى جابر لجهودها العظيم فى رعاية ملتقانا الفلسفى/ العلمى، بروحها الإسكندرانية الأصيلة.

والله الموفق،

دكتور / يوسف زيدان

ورقة العمل

البحث عن منهج للعلوم الإنسانية

د. علي عبد المعطى محمد (*)

(*) استاذ ورئيس قسم الفلسفة بأداب الاسكندرية

البحث عن منهج للعلوم الإنسانية

أولاً: أزمة المنهج فى العلوم الإنسانية

يمكن تعريف العلوم الإنسانية بأنها «تلك التى تدرك العالم على أنه ينطوى على معانٍ، وتتكون معرفتها بتلك المعانى» وهذا يعنى أن علوم الإنسان تحاول النفاذ إلى الأفكار والمشاعر والمعانى والمقاصد التى تقف وراء الواقع أو التعبيرات المختلفة وإدراكها إدراكاً كيفياً ، فموضوعها يختلف على هذا النحو عن موضوع العلوم الرياضية الذى يدور حول الكم المتصل والمنفصل، كما يختلف عن موضوع العلوم الطبيعية الذى ينصب على المادة، وبديهي أن يؤدي الاختلاف فى الموضوع إلى اختلاف فى المنهج .

كان علماء الرياضيات قد اتخذوا منذ القدم المنهج الاستنباطى Deductive Method منهجاً ملائماً للعلوم الرياضية، ووجدنا آثار ذلك عند أفلاطون الذى كان يعلم فى أكاديمته الاستنباط المنطقى للقضايا الرياضية، وعند أرسطو فى حديثه عن العلم البرهانى، وعند أقليدس وتشبيده للهندسة على هيئة نسق استنباطى، ونفس الأمر ينطبق على المنهج الاستقرائى Inductive Method الخاص بالعلوم الطبيعية فلقد عرف أرسطو الاستقراء وحدد النوع العلمى فى كتابه الطوييقا بأنه الانتقال من المعلوم إلى المجهول أو «الانتقال من الجزئيات للكليات».

وإذا كانت الخلفية التاريخية العريقة قد ميزت المنهجين

الاستنباطي والاستقرائي وأدت إلى استقرارهما، فقد افتقد منهج العلوم الإنسانية تلك الميزة، ذلك أن الحاجة إلى قيام هذا المنهج لم يبدأ إلا حينما استقلت علوم الإنسان مع بدايات القرن ١٩ عن أمها الفلسفة وقتها فقط حاول باحثوها إيجاد منهج ملائم لها، لا هو بالمنهج الاستنباطي الخاص بالعلوم الرياضية، ولا هو بالمنهج الاستقرائي الخاص بالعلوم الطبيعية ذلك لأن الإنسان محور دراسة العلوم الإنسانية ليس عدداً أو شكلاً مما تدرسه علوم الرياضة، كما أنه ليس مادة من مواد علوم الطبيعة.. إنه روح بالأصالة: روح لا تقبل الكم أو القياس ولا تخضع للملاحظة أو التجريب. ورغم بساطة تلك الحقيقة إلا أنها قوبلت بالرفض من البعض، وأدى ذلك إلى قيام ما يسمى بأزمة المنهج في العلوم الإنسانية .

بدأت الأزمة حينما حاول الوضعيون رد الروح إلى المادة وبالتالي إخضاع علوم الإنسان إلى منهج علوم المادة، وازداد سعيها لهيباً حينما حاول هؤلاء وغيرهم تحويل الإنسان إلى مجرد عدد أو شكل مما يمكن إخضاعه لمنهج الاستنباط، غير أن مجموعة ثالثة من الباحثين رأت ضرورة أن يتخذ كل علم إنسانى منهجاً يخصه وحده دون غيره على ألا يكون هذا المنهج استقرائياً أو استنباطياً ،

ورغم ما في هذا الرأي من وجهة، ومن اعتراف باختلاف مناهج العلوم الرياضية والطبيعية والإنسانية إلا أنه أدى إلى اتساع نطاق الأزمة بدلاً من حلها، ففي حين كان هدفنا تشييد منهج واحد يلائم العلوم الإنسانية جميعاً، قادنا هذا الرأي إلى مناهج عديدة متضاربة

يقال إنها تخص العلوم الإنسانية كمنهج التحليل النفسى فى علم النفس، والمنهج الاستردادى فى التاريخ، ومنهج التأمل العقلى فى الفلسفة.. الخ.

ومن المدهش حقا أن نجد من بين العلوم الإنسانية من يتخذ لنفسه أكثر من منهج يتعارض الواحد مع الآخر تعارضاً جذرياً، كاتخاذ منهج التحليل النفسى والمنهج التجريبي والقياس فى علم النفس، وكاتخاذ المنهج التاريخى والمنهج التجريبي الإحصائي فى علم الاجتماع، وهنا ظهرت صيحة أخذت تتعالى بين علماء المناهج وتم صياغتها على النحو التالى :

ألا يمكن أن نجد منهجا واحدا للعلوم الإنسانية كلها يختلف تماماً عن المنهج المتبع فى العلوم الرياضية وعن المنهج المتبع فى العلوم الطبيعية، بحيث لا تترك العلوم الإنسانية فريسة للتشتت بين مناهج متنافرة وغير ملائمة؟.

كان هذا السؤال مهماً، وظهرت عدة محاولات تستهدف تشييد ذلك المنهج تمثل أهمها فى تلك البادرة الدقيقة التى حددتها المدرسة الألمانية والتى اعتبرت الفهم Understanding محورا أصيلاً فى منهج العلوم الإنسانية، فى مقابل المعرفة التجريبية التى تميز العلوم الطبيعية فبينما تكون المعرفة الأخيرة خارجية وتجريبية وكمية يتجه الفهم نحو أعماق الوقائع لكى ينفذ إلى المعانى والأفكار فيدركها إدراكاً كيفياً خالصاً. ومن المحال إخضاع المعرفة الكيفية إلى المعرفة التجريبية الكمية .

وحيثما اتضح ذلك ، قام هجوم كبير على الوضعية ورجالها في محاولة واضحة لمناصرة قضية الفهم كعملية محورية للمنهج الكيفي الخاص بالعلوم الإنسانية، وظهرت أثناء هذا الهجوم أسماء كثيرة منها: جورج زيمل والفرد ميركاندت، وسورين كيركجارد، وفلوريان زنانيكي، وروبرت ماكيفر، ويتر سوروكين، ورايت ميلز، وفيرند ستارك ودلتاي، وريكت، وفير، وريكان، سوف نعرض فيما يلي نماذج من تلك الإسهامات والمحاولات :

لقد ميز ديكرت بين النفس والجسم تمييزا حاسما، وقرر أن ميدان الروح يختلف تماما عن ميدان المادة إلا أنه لم يتحدث صراحة عن منهج خاص بعلوم الروح رغم أنه تحدث بوضوح عن منهج العلوم الطبيعية .

أما الفيلسوف الانجليزي جون استيوارت مل فلقد قام بنحت مصطلح العلوم الأخلاقية Moral Sciences الذي يرادف مصطلح Giestwissenschaften في اللغة الألمانية لكي يدل به على العلوم الإنسانية التي نمت نموا كبيرا في القرن التاسع عشر وتمايزت عن مجموعة العلوم الطبيعية.

ويعد الفيلسوف الدانماركي سورين كيركجارد الرائد الأول للمنهج الجديد في العلوم الإنسانية فلقد طالب بضرورة دراسة الإنسان وفق مصطلحات علم الروح لا علوم الطبيعة، ورأى ضرورة وجود منهج يفيد في دراسة الروح والباطن دراسة كيفية خالصة .
ولقد ذهب المفكر المثالي المحدث دلتاي إلى أنه من المحال تطبيق

مناهج العلوم الطبيعية على علوم الإنسان، فالعلوم الطبيعية تعالج وقائع Facts حسية بينما تعالج العلوم الإنسانية معانى Meanings باطنية وبينما تعتمد العلوم الطبيعية على التفسير Explanation تعتمد علوم الإنسان على الفهم Understanding ويختلف موقف ريكوت الكانطي المحدث عن موقف دلتاي فى تفرقته بين العلم والتاريخ، فالعلم يقوم بتحليل الطبيعة فى ضوء القوانين السببية، وهو بذلك يعالج ظواهر خالية من المعنى، أما التاريخ (كعلم إنسانى) فهو يقوم بتحليل الطبيعة كنمط للأحداث الفريدة التى تنبض بالمعنى والمغزى والمشاعر والأهداف، أما ماكس فيبر فلقد ذهب إلى أن العلوم الإنسانية والتاريخية ذات خصائص فريدة، وهى جميعا تنشد الفهم، إلا أن الفهم عنده ليس مرادفا للحدس الوجدانى الغامض بل هو عنده فكرى وتحليلى وتفسير تنبؤى للسلوك .

وأخر محاولة فى إرساء منهج العلوم الإنسانية هى تلك التى قام بها ريكمان استاذ الفلسفة وعلم النفس بجامعة لندن والذي وضع كتابا مهما فى هذا الصدد عام ١٩٦٧ قام كاتب هذه السطور بالاشتراك مع المرحوم الدكتور/ محمد على محمد بترجمته والتعليق عليه تحت عنوان «منهج جديد للدراسات الإنسانية» عام ١٩٧٩ وقد قدم ريكمان فى هذا الكتاب صورة نسقية متكاملة لمنهج العلوم الإنسانية معتمدا على مصطلحات المعنى والفهم والتعبير والسياق .

ثانيا : الفهم محورا للعلوم الإنسانية

علينا الآن أن نعرض لعناصر وعمليات هذا المنهج المقترح للعلوم الإنسانية وذلك من خلال نقاط محددة نتناول فيها وقائع العلوم الإنسانية واختلافها عن وقائع العلوم الطبيعية، ومعنى الفهم والشروط الاستمولوجية الثلاثة له، وطبيعة التعبيرات والسياقات .

تهتم العلوم الإنسانية بالوقائع Facts شأنها فى ذلك شأن العلوم الطبيعية، لكن وقائع العلوم الإنسانية تختلف عن وقائع العلوم الطبيعية اختلافا جذريا، فالواقعة بالمعنى المستخدم فى العلوم الإنسانية واقعة ينتجها موجود إنسانى يصدر عنه أحكام أخلاقية وله معايير وأهداف ومشاعر وقيم وليس للواقعة الطبيعية ذلك، ووقائع العلوم الطبيعية محسوسة وملموسة لها وجود ماثل أمام حواسنا .

ووقائع مباشرة تخضع للإدراك الحسى، أما وقائع العلوم الإنسانية فهى وقائع غير مباشرة تتمثل فى المعانى والمشاعر والأفكار التى ينفذ إليها وراء ما هو حسى نفاذا كيفيا.. ووقائع العلوم الطبيعية تخضع للتفسير الذى يحاول بيان العلاقات الخارجية بين الوقائع، أما وقائع العلوم الإنسانية فتخضع للفهم الذى ينفذ إلى المعانى الباطنة داخل الأشياء ، وأخيرا فإن وقائع العلوم الطبيعية يمكن التعبير عنها بلغة كمية بينما لاتخضع وقائع العلوم الإنسانية للكلم إذ إنها ذات طبيعة كيفية خالصة.

والفهم Understanding ليس منهجا، وإنما هو لباب المنهج الكيفى، وهو عملية لاغنى عنها فى العلوم الإنسانية ، بل هو يطبع

هذه العلوم بطابعه، ولقد عنت المدرسة الألمانية بالفهم كأداة معرفية متميزة تختلف عن العمليات المعرفية المستخدمة فى العلوم الرياضية والعلوم الطبيعية على حد سواء، ذلك أن الفهم يحاول معرفة المشاعر والنوايا والمقاصد والرغبات والأفكار عن طريق النفاذ إليها خلال الكلمات أو التعبيرات أو السياقات ومن ثم يمكن تعريف الفهم بأنه «العملية المعرفية المتميزة التى تستهدف استيعاب المحتويات العقلية الكامنة فى كل تعبير» ولما كان الفهم عملية معرفية فهو يتصل من ثم بالمعرفة أو الاستمولوجيا، وهنا يجب أن نتوقف عند الشروط الاستمولوجية الثلاثة للفهم:

(١) الالفة بالطبيعة الإنسانية :

بما أننا جميعا من طبيعة إنسانية واحدة فإنك تكون مألوفاً لدى، كما أننى أكون مألوفاً لديك، ومن ثم فإننى أستطيع أن أفهمك، كما أنك تستطيع أن تفهمنى ، فالانتماء إلى نفس الطبيعة يجعل الفهم ممكنا وميسورا بيننا.

ونحن لانفهم بعضنا البعض فى الآن الحاضر وحسب، بل إن هذا الفهم قد يمتد إلى البدايات الأولى للتاريخ، فنحن نفهم خطيئة آدم عليه السلام، وغواية حواء له، ونفهم معنى الأبوة التى دفعت سيدنا نوح إلى تكرار دعوته لابنه، ونفهم سير الأبطال وأهدافهم ونواياهم وطموحاتهم وأفكارهم كما نفهم معانى الحرب التى كتبها شكسبير فى روايته «روميو وجوليت» ومعانى الخطيئة والندم كما جاءت فى «أوديب ملكا» كما نفهم كل التراث الأدبى والثقافى للمفكرين والأدباء

وما ذلك إلا لأننا ننتمى وإياهم إلى طبيعة إنسانية واحدة .
ونحن لانفهم الآخرين الذين يجاوروننا مكانيا وحسب، بل إننا
نستطيع أن نفهم الإنسان فى كل مكان فنحن نفهم أفكار وطموحات
الإنسان فى أمريكا، كما نفهم أيديولوجيات وأفكار الناس فى
روسيا، ونحن نفهم الطقوس التي يمارسها الرجل البدائى فى
أفريقيا، كما نفهم مكتشفات العلماء فى أوروبا .
(٢) **معرفة الخلفية الثقافية :**

ويقصد بها الألفة بالقواعد والإصطلاحات التي تحكم الأغلبية
العظمى من التعبيرات، فنحن لانفهم الجملة بدون معرفة قواعدها
وتركيبتها، وبدون معرفة اللغة بوجه عام، غير أن الخلفية الثقافية قد
تشير إلى أكثر من هذا، فهي تضم المعرفة بالاككتشافات العلمية،
والإبداعات الفنية، والحركات الأدبية، والمؤتمرات والندوات والقضايا
الاجتماعية، والشئون العسكرية، والأبعاد التاريخية والمواقف
الأيديولوجية ، والظواهر الجغرافية والأمور السياسية، والتيارات
الفلسفية ويدهى أنه كلما كان إلمام الإنسان بالخلفية الثقافية كبيرا
كلما كان فهمه أعظم .

(٣) **الوعى بالسياقات المحددة التي تحدث فيها التعبيرات :**
وهذا الشرط واضح وضوحا لا لبس فيه، فالكلمة تكون أكثر دقة
إذا فهمناها من خلال عبارة والعبارة تكون أكثر دقة إذا فهمناها من
خلال فقرة، وفهمنا الفقرة من خلال كتاب، وفهمنا الكتاب من خلال
العرف الأدبى والثقافى .

تعبير التعبيرات الوسيلة الوحيدة التي يحدث الفهم من خلالها،
كما تعد من جهة أخرى الموضوع الوحيد للعلوم الإنسانية ،
وللتعبيرات وظيفتان هما الكشف عن حالتنا العقلية والشعورية،
وإحالتنا إلى شيء له معنى أو إلى حادثة يشير إليها ويمثلها ومن ثم
فالمظهر الفيزيقي تعبيرا إذا كشف عن حالة عقلية أو شعورية أو إذا
أحالتنا إلى معنى .

ويمكن تصنيف التعبيرات إلى تعبيرات اصطلاحية مثل الرموز
الرياضية والإشارات الموسيقية وإشارات المرور، وتعبيرات طبيعية
مثل الصيحة المعبرة عن الألم، ورفع اليد المعبرة عن التحية والسلام،
والضحكة المعبرة عن السعادة وتعبيرات ثابتة مثل الحديقة المنسقة،
والتماثيل، والتعبيرات المتغيرة مثل التعبير عن الغضب، والتعبير عن
الفرح، والتعبير عن الاستياء وتعبيرات بسيطة كالكلمة والإيماءة،
وتعبيرات مركبة مثل قصيدة شعرية أو رواية أو مقالة .

والتعبيرات لا يمكن أن تفهم إلا من خلال سياقاتها ولهذا يقترح
ريكمان أن يتم تحديد العلوم المختلفة في ضوء سياقات تعبيراتها،
فكل علم يختص بسياقات تعبير تختلف عن سياقات علم آخر ومن
الممكن أن تتميز السياقات موضوعيا إذا ربط السياق بين تعبيرات
تتميز بأنها ذات محتوى عام مشترك، وتتميز تصنيفيا إذا ترابطت
التعبيرات فيه على أساس التشابه مثال (كل التعبيرات الموسيقية)
وتتميز وظيفيا إذا كانت التعبيرات فيه ذات علاقة تدخل في بناء
يخدم أغراضا معينة، كما تتميز تاريخيا حينما تتكون من سلسلة

زمنية من التعبيرات يؤثر فيها السابق على اللاحق تأثيرا كبيرا، وتاريخ الفلسفة خير مثال على ذلك وأخيرا تتميز وجوديا إذا تكونت من تعبيرات ذات موضوع واحد أو كيان يوم في زمان مثال ذلك كل ما يقوله الإنسان أو يفعله ويكون جزءا من حياته.

فالتعبير إذن دائما ما يحدث في سياق أو يتعلق بسياق أو عدد من السياقات لأن من طبيعته أن يشير إلى ما ورائه، وهذه الإشارة نفسها عبارة عن علاقة.

ثالثا: ملاحظات وتعقيبات نقدية

أثار المنهج الكيفي القائم كما أرساه ريكان بصورته النهائية مستفيدا من الإسهامات السابقة عليه عددا من أوجه النقاش منها ما هو إيجابي ومنها ما هو غير ذلك، فلقد أكد إمكانية وحدة المنهج في العلوم الإنسانية من حيث تطبيق المنهج الكيفي الذاتي عليها جميعا بلا استثناء كما قدم لنا يد العون في تحديد خريطة علم المناهج بصورة واضحة جلية: المنهج الاستنباطي، للعلوم الرياضية، والمنهج الاستقرائي للعلوم الطبيعية، والمنهج الكيفي القائم على الفهم للعلوم الإنسانية وقد أعاننا ذلك على القضاء على مشكلة تخطب العلوم الإنسانية في اختيار مناهج متعددة منها ما هو غير ملائم لها ومنها ما لا يتوافق مع طبيعتها ومنها ما يطمس غايتها .

وإذا كان الفهم يقتنص المعنى أو الفكرة أو العاطفة التي تقف وراء التعبيرات فإن ذلك يفترض صدق ما تحتويه التعبيرات من معان أو عواطف أو أفكار، لكن ذلك لا يحدث عادة أو قل أنه لا يحدث في

حالات عديدة؟

فلقد بينت دراسات كثيرة أنه لاتعادل بين اللفظ وبين محتواه العقلي، كما بينت دراسات أخرى أن الفارق قد يكون كبيرا بين الاتجاه اللفظي والاتجاه الفعلي، فقد نفعل ما لا نقوله، أو نفعل عكس ما نقول، أضف إلى ذلك أن اللغة ليست هي دائما خير تعبير عن الفكر، وأنها ليست الثوب الخارجي المضبوط له في كل الأحيان، فهناك عبارات اجتماعية مبهمة، كما أن هناك عبارات قد تؤدي إلى إخفاء حقيقة الفكر أو إلى خداع الآخرين أو إلى التمسوه على مشاعرنا الحقيقية وإخفاء عواطفنا الصادقة .

يبدو إذن أن مسألة «الفهم» ليست بهذه البساطة، إذ إنها تتطلب مهارات وقدرات خاصة تمكن صاحبها من الفهم الحقيقي الصادق لأفكار الناس وعواطفهم ومشاعرهم، لأجل هذا يدعوننا «ريكان» إلى اتباع مدخل متعدد الأبعاد نتمكن بفضلها من النظر إلى الموضوع الواحد من زوايا فهم متعددة ويتخطى حدود المدخل الواحدى البعد بالإضافة إلى معرفتنا بالخفية الثقافية التي تمثل الشرط الثاني من الشروط الابدستمولوجية للفهم، فبمثل هذه الخفية وبالمدخل المتعدد الأبعاد الذى يضم مداخل نفسية وفكرية واجتماعية وسياسية وتاريخية نتمكن من التمييز بين التعبيرات الصادقة والتعبيرات المزيفة .

والمنهج الكيفي القائم على الفهم الذى يغوص إلى الباطن لكى يقتنص المعانى والأفكار يثير موضوعا مهما يتعلق بعلاقة هذا المنهج

الفينومينولوجى، والفينومينولوجيا فى صورتها الأخيرة عند هوسرل تحاول إقامة منهج وصفى تصفى فيه بإسهاب كل أنواع الموضوعات فى ماهياتها، البحتة لكنه لا يقتصر على الوصف الخارجى للظواهر وإنما يتعمق الظواهر لى يصل إلى وصف أعماقها وماهيتها، بيد أنه يقف عند حدود هذا الوصف فلا يحكم على شىء بل يقوم بما أسماه هوسرل «تعليق الحكم» وإذا نظرنا الآن إلى المنهج الكيفى كما قدمه «ريكان» لرأيناه يتفق مع المنهج الفينومينولوجى بأنه ذاتى وينفذ إلى الباطن لاقتناص المعنى أو الماهية، غير أنه يختلف عنه فى أن المنهج الكيفى لا يطالب «بتعليق الحكم» وإنما هو يقوم بعمليات الحكم فى نفس الوقت الذى يقوم بعملية الفهم، فنحن إذ نفهم نحكم فى نفس الحكم .

قد يقال إن المنهج الكيفى القائم على الفهم يلائم بعض العلوم الإنسانية لكنه لا يلائم البعض الآخر خصوصا تلك التى تعتمد على مقولة الكم، ومن ثم فهو منهج لا ينطبق على كافة العلوم الإنسانية، إن الرد على هذا القول يستلزم بيان كيف أن مثل تلك العلوم الأخيرة التى تعتمد على مقولة الكم هى علوم إنسانية، ومن ثم يجب أن تفهم وأن تخضع للمنهج الكيفى .

يرى «ريكان» أن الاقتصاد دراسة إنسانية حيث إنه يعالج علاقات ذات معنى كما أن موضوعاته هى التعبيرات التى تشير إلى معان أو أغراض أو أهداف بالنسبة للأفراد والنقابات أو الأمم ويذهب إلى أن الأفعال والأهداف التى تقف وراء التعبيرات

الاقتصادية وتأثيراتها على الناس يمكن أن تفهم ومن ثم تكون بمثابة موضوع للعلوم الإنسانية .

ويذهب «ريكمان» إلى أن اقتصار الاقتصاد على تناول الحياة الاقتصادية في ضوء أليات عليا وإحصاءات تؤدي إلى نتائج مضللة إذا لم تلحق بدراسات أكثر شمولاً من الدائرة الاقتصادية تتعلق بالإنسان الذي ينتج ويشتري ويستهلك وله متطلباته وأماله، واتجاهاته ، وأهدافه .

والواقع أن الاعتماد على لغة الاحصاءات والأرقام دون فهم مدلولات هذه الاحصاءات وتلك الأرقام هو أمر يقودنا إلى التمسك بقشور الأشياء دون النفاذ إلى لبابها، ويؤكد ريكمان أيضاً على أن الجانب الاحصائي كثيراً ما يقودنا إلى قنوات عمياء وهو جهد ضائع تماماً اللهم إلا إذا تمكنا من فهم مدلولاته ومعانيه، وينتهي من تحليله هذا إلى أن التعبيرات الاحصائية ليست هي نهاية المطاف في الدراسات الاجتماعية أو السكانية أو الديموجرافية أو الإدارية، بل علينا أن نعتبرها مجرد رموز يجب أن نتعمق معانيها بالغوص في باطنها فنذكر حينئذ الأهداف والنوايا والأفكار التي تقف وراءها، فالأقتصار على الجانب الاحصائي وحده هو اقتصار على أشباح خاوية من المعنى .

قد يقال أخيراً بأن المنهج العلمى المعاصر أو ما يسمى بالمنهج الفرضى يمثل حجر عثرة أمام تكوين خريطة علم المناهج بصورة محددة وواضحة على النحو الذى انتهى إليه رأينا هذا، وذلك من

حيث إن المنهج العلمى المعاصر يختلف اختلافات كثيرة عن المنهج الاستقرائى التقليدى كما عند بيكون ومل، وأدت هذه الاختلافات إلى إزالة الحدود بين الاستقراء والاستنباط وبالتالي إلى اهتزاز خريطة علم المناهج، والواقع أن هذا القول ينم عن تناول سطحي للأمور ونحن لانقبله لما يلى :

(أ) إن المنهج العلمى المعاصر لم يرفض «العلية» تماما وإنما رفض أن يكون انعاما كله خاضعا للعلية، هناك الآن علاقات عليية وأخرى غير عليية، ومن ثم فقلد وسع المنهج الفرضى دائرة العلاقات القائمة بين الظواهر، وستبقى العلية التى كان يعتمد عليها الاستقراء التقليدى لكنه لم يعتبرها العلاقة الوحيدة .

(ب) كذلك لم يرفض المنهج العلمى المعاصر عنصر الملاحظة والتجربة وإنما وضعه فى ترتيب غير الترتيب الذى كان له فى المنهج الاستقرائى التقليدى، ففى حين أننا نبدأ بالملاحظة والتجربة ونعتبرها خطوة أولى فى المنهج الأخير، فهما يأتیان كخطوة ثالثة فى المنهج الفرضى أى يأتیان بعد تسجيل الفرض الصورى واستنباط نتائج منه .

(ج) والمنهج العلمى المعاصر يستخدم الفروض العلمية شأنه فى ذلك شأن المنهج الاستقرائى التقليدى، بيد أن الرفض الذى كان يمثل الخطوة الثانية التى تلى خطوة الملاحظة والتجربة والذى كان يشير إلى مدركات حسية، أصبح فى المنهج العلمى المعاصر فرضا صوريا لايشير إلى مدركات حسية ويأتى سابقا على الملاحظة

والتجربة.

(د) إن المنهج العلمى المعاصر يستهدف الوصول إلى قضايا كلية وهو نفس هدف الاستقراء التقليدى .

(هـ) إذا كان المنهج العلمى المعاصر يستخدم الاستنباط الرياضى جنباً إلى جنب مع الخبرة الحسية بخلاف المنهج الاستقرائى التقليدى، فهذا لا يعد فاصلاً حاسماً كما توهم البعض فالاستقراء Induction والاستنباط Deduction جزءان لعملية واحدة هى الاستدلال Inference أو هما كما يقال وجهان لعملية واحدة : وجه يمثل الاستقراء وآخر يمثل الاستنباط، يتجه الاستقراء من أسفل إلى أعلى من الجزئى إلى الكلى، بينما يتجه الاستنباط من أعلى إلى أسفل... من الكلى إلى الجزئى، ورغم وجود هذه العلاقة بينهما إلا أن ذلك لم يمنع تمايزهما :

المنهج الاستقرائى للعلوم الطبيعية والمنهج الاستنباطى للعلوم الرياضية .

(و) وبالإضافة إلى ذلك فنحن نستطيع أن نقرر بكل ثقة أن المنهج العلمى المعاصر لا يمكن أن يقوم أو يستمر بدون المنهج الاستقرائى التقليدى ، فالمنهج الأول يعتمد على تفسير القوانين التى ما زالت محتاجة إلى تفسير أكبر لكن من أين أتت هذه القوانين؟ أنها لاتأتى إلا عن طريق المنهج الاستقرائى التقليدى .

ومن ثم فنحن نقول بأن المنهج الاستقرائى سيظل قائماً كمنهج للعلوم الطبيعية حتى وأن استعان بالاستنباط، كما سيظل المنهج

الرياضي قائما كمنهج ملائم للعلوم الرياضية حتى وإن احتاج إلى الاستقراء، وهما معا لا يصلحان للتطبيق على العلوم الإنسانية التي لا يلائمها إلا المنهج الكيفي القائم على الفهم كمنهج وحيد لها وهذا هو الموقف النهائي لهذه الدراسة .

رابعاً: منهج واحد للعلوم الإنسانية وطرائق بحث متعددة

الواقع أن القول بتعدد مناهج العلوم الإنسانية يمثل خطوة تراجعية تعود بنا إلى ما قبل ظهور ما يسمى بأزمة المنهج في العلوم الإنسانية، تلك الأزمة التي تمثلت في قبول بعض هذه العلوم للمنهج الاستنباطي أو للمنهج الاستقرائي ومن ثم ردت الإنسان إلى مجرد عدد أو مادة من مواد الطبيعة، كما تمثلت في قبول بعضها الآخر لأكثر من منهج يتعارض الواحد مع الآخر تعارضاً جذرياً، بحيث انتهى الأمر بالعلوم الإنسانية إلى وقوعها فريسة للتشتت بين مناهج عديدة متنافرة وغير ملائمة.

كان من المستحيل لفكرى وعلماء مناهج البحث أن يديروا ظهورهم لتلك الإشكالية أو تلك الأزمة الناجمة عن تعددية المناهج في العلوم الإنسانية فراحوا يبحثون عن منهج واحد لها جميعاً يلائم تلك العلوم من جهة ويختلف عن المنهجين الاستنباطي والاستقرائي من جهة أخرى، ووجدوا ضالتهم المنشودة في منهج الفهم الكيفي .

والمنهج بوجه عام، ومنهج الفهم الكيفي على وجه الخصوص رؤية شاملة ذات خطوط كلية تميظ اللثام عن فلسفة معينة، وغايات محددة، وهو ينفذ في كافة العلوم الإنسانية، ويطبّعها بطابعه وروحه،

وفى هذا لا يختلف علم إنسانى عن آخر .

والى جوار المنهج تستخدم العلوم الإنسانية طرائق أو أساليب بحث تستهدف إنجاز المنهج وتحقيق غاياته، من هذه الأساليب الأسلوب التاريخي، وأسلوب المسح الاجتماعي، والأسلوب الإحصائي ، وأسلوب العقلنة الخيالية، وأسلوب التحليل النفسى، والأسلوب التأملى، وأسلوب تحليل المضمون.. وأسلوب دراسة الحالة.. الخ. وتتفاوت العلوم الإنسانية من حيث استخدامها لأسلوب أو أكثر حسب اختلاف تعبيرات وسياقات هذا العلم أو ذاك، فالأسلوب الإحصائى يفيد فى علم الاقتصاد لكنه لايلئم الفلسفة، وأسلوب التحليل النفسى يفيد فى علم النفس لكنه لا يكون كذلك فى علم الجغرافيا، وأسلوب المسح الاجتماعى يفيد فى علم الاجتماع لكنه لايلئم علم التاريخ. لكن ذلك لا يمنع عددا من العلوم الإنسانية من استخدام نفس الطرائق أو الأساليب ، فأسلوب دراسة الحالة مثلا يمكن استخدامه فى علم الاجتماع، وعلم النفس والطب النفسى والخدمة الاجتماعية، وأسلوب تحليل المضمون يمكن استخدامه فى مجالات الصحافة والإعلام والأدب وعلم الاجتماع والفلسفة والتاريخ وعلم النفس، والأسلوب الإحصائى يمكن استخدامه فى علوم الاقتصاد والنفس والاجتماع، والأسلوب التاريخى يمكن استخدامه فى علم الاجتماع وعلم النفس والفلسفة والجغرافيا فضلا عن علم التاريخ .

غير أن مانريد أن نؤكد عليه هو أن أساليب البحث وطرائقه

المستخدمة فى العلوم الإنسانية يجب أن تكون معبرة عن منهج الفهم الكيفى ومحققة لغاياته وأهدافه فالعلوم الإنسانية تستخدم الأسلوب الإحصائي، شريطة أن «نفهم» المدلولات والمعانى التى تقف وراء الأرقام فهما كيفيا: ذلك أن الاختصار على الجانب الإحصائي هو اختصار على أشباح خاوية من المعنى، إن طريقة تحليل المضمون Content Analysis يجب أن تعبر عن منهج الفهم الكيفى، وتتوافق مع عملياته وأهدافه، لا أن تتوقف عند تصنيف المضمون إلى: ماذا قيل؟ وكيف قيل؟ أو تسجيل الكلمات وعدها فى قوائم معينة، أو إحصاء العبارات التى تشير إلى أفكار معينة فى مجال تحليل معين، أو تعداد الشخصيات والمقالات أو الكتب والروايات أو البرامج الإذاعية والتليفزيونية، أو قياس المساحة والزمن كذكر عدد الصفحات والأعمدة والسطور فى المادة المكتوبة، والدقائق بالنسبة للبرامج الإذاعية والتليفزيونية. إن طريقة تحليل المضمون لو توقفت عند ما سبق ذكره فإنها تكون قد توقفت فى نفس الوقت عند القشور الظاهرية للأشياء بدلا من الغوص فى لبابها. إن عمليات الترميز والتصنيف والإحصاء والتعداد وتحديد وحدات المكان وأنات الزمان لا يجب أن تكون هي نهاية المطاف، إنها البداية التى يجب أن نسبر أغوارها الدفينة وباطنها الكيفى بكل ما يحمله من دلالات ومعانى ومشاعر وقيم وأهداف .

ويجب ألا تنساق فى هذا الصدد وراء زمرة الباحثين السطحيين الذين حاولوا توجيه نظرنا نحو شكل التحليل أكثر من مضمونه،

ونحو ظاهرة الكمى أكثر من باطنه الكيفى.

كما لا يجب إلا نقبل ذلك التعريف الذى جاء به بيرلسون ونصه أن «تحليل المضمون أسلوب فى البحث يهدف إلى الوصف الكمى الموضوعى المنظم للمضمون الظاهر» .

تبقى أساليب العقلنة الخيالية، ودراسة الحالة والتحليل النفسى، والأسلوب التأملى ، والأسلوب التاريخى، وواضح أنها جميعا ذات طابع كيفى خالص، وبالطبع يمكن أن يضاف إلى هذه الأساليب أو الطرائف أساليب أخرى شريطة أن تتفق مع جوهر منهج الفهم الكيفى وتحقق أهدافه وغاياته .

ليس ثمة مناهج عديدة إذن فى حقل العلوم الإنسانية بل هناك منهج الفهم الكيفى، وأن هذا لا يمنع وجود طرائق بحث متعددة تدور فى فلك هذا المنهج وتعبير عن روحه العامة .

خامسا: الأيديولوجيا وقضية الموضوعية فى العلوم الإنسانية

والواقع أن الدور الأيديولوجى بما يشتمل عليه من قيم وأفكار وروى، وبما يتضمنه من انحيازات ومشاعر ورغبات، وبما يرفعه من شعارات تخاطب العواطف والوجدان، يؤدى إلى عدم استقلالية الباحث عما يدرسه من قضايا وظواهر ومشكلات فتتدخل ذاته فى الموضوع ويصدر أحكاما قيمية وأخلاقية على ما يعيه أو يفهمه، وتتلاشى المسافة التى ينبغى أن تكون بينه وبين وقائع بحثه وفى هذا هدم للموضوعية ، وتقليل من مرتبتها .

هكذا تعصف رياح «الأيديولوجيا» جنبا إلى جنب مع «الذاتية»

وأحكام القيمة بأطروحة الموضوعية، أو تقلل منها فى أحسن الأحوال: الذاتية تقضى باتباع ميولنا وأهوائنا، موافقنا الشخصية، ورغباتنا الفردية، وأحكام القيمة تسلبنا حيادنا الأخلاقى والقيمى، والأيدىولوجيا تدفعنا إلى الانحياز لعقيدة فكرية، والتعصب لها، وصبغ الوقائع بصبغة معينة .

أما كلمة «الموضوعية» فهى تشير إلى الإلتزام بالموضوع مثار النظر، وتتناوله بالبحث والدراسة بعيدا عن تطلعاتنا وتحييزاتنا وأرائنا المسبقة ورغباتنا، ومن ثم فهى ترادف «الحياد» وتقابل «الذاتية» وتعبر عن القدرة على استبعاد المشاعر والعواطف عند تناول الوقائع وتفسيرها وعدم إصدار أحكام أخلاقية أو قيمية بشأنها .

لكن هل تحمل «الموضوعية» عند أنصار النزعة الطبيعية نفس المعنى الذى تحمله عند أنصار النزعة الذاتية؟

لقد حاول أنصار النزعة الطبيعية تحويل الكيف إلى الكم، والروح إلى المادة، محاولين بذلك العمل على احتذاء العلوم الإنسانية للعلوم الطبيعية، ومن ثم لا يصبح هناك تفاوتاً بين مفهوم «الموضوعية» فى كل من العلوم الإنسانية والطبيعية. ولقد مثل تلك النزعة خير تمثيل الوضعيون والوضعيون المنطقيون، والسلوكيون، والنقديون التجريبيون، وكل من سار على منوالهم .

ويمكن اعتبار محاولة اميل دور كايم Durkheim فى علم الاجتماع داخلة تحت هذا الإطار، فلقد نادى بضرورة تناول الوقائع أو الظواهر الاجتماعية على أنها أشياء ، ومعالجتها من هذا المنظور

أي باعتبارها وقائع طبيعية، ولقد استعان في هذا الصدد بالاحصاء الذي أشاد بأهميته واستخدامه في دراسته عن الانتحار. أما أرنست ماخ Mach صاحب مذهب النقد التجريبي فلقد اجتهد في إيجاد بناء منهجي واحد، يعتمد على الإحساسات وحدها، ويكون صالحا لأن يشتق منه كل بحث علمي سواء أكان هذا البحث في ميدان الفيزياء أو الانثروبولوجيا أو علم النفس الخ.. في حين حاول كارناب Carnap إيجاد أسلوب اختزالي ترد العلوم الإنسانية وفقه إلى أصولها الفيزيائية وعلى الأساس ذهب فيجل Feigl إلى أن علم النفس يمكن رده إلى الفيزياء كما يمكن رد علم الاجتماع إلى علم النفس وهكذا قل في بقية العلوم. أما لندبرج Lundberg فلقد زعم أن ما نسميه بالإرادة والعواطف والرغبات والمشاعر وكل ما هو حسي ليست أكثر من «زوائد» لامعنى لها. وفي عام ١٩١٣ كتب واطسون Watson مقالا بعنوان «علم النفس من المنظور السلوكي» نبذ فيه الاستبطان كأسلوب للدراسة في علم النفس، وذهب إلى أن السلوك الإنساني يجب بحثه بنفس الأساليب المستخدمة في الكيمياء والفيزياء وعلم الحيوان، أي بطرائق تجريبية حسية تتعامل مع السلوك الظاهر وحسب .

ولقد رأى هؤلاء جميعا وغيرهم ممن سار على دربهم أن الموضوعية في العلوم الإنسانية يمكن أن تتحقق تلقائيا متى اتخذت هذه العلوم أساليب ومنهج العلوم الطبيعية بكل دقة واتقان. وهذا يعني أن احتذاء علوم الإنسان لعلوم الطبيعة سوف يؤدي في نظرهم

إلى تحقيق الموضوعية المنشودة فى العلوم الإنسانية، غير أن هذا
الرأى قد قوبل بهجوم عنيف للأسباب التالية:

(١) إن العلوم الإنسانية تختلف اختلافا بينا عن العلوم الطبيعية
فى الموضوع والمنهج وأساليب البحث، فموضوع العلوم الإنسانية هى
الوقائع التى ينتجها موجود إنسانى مزود بهيكل من القيم والمشاعر
وليس لوقائع العلوم الطبيعية ذلك، وقائع العلوم الطبيعية حسية
مباشرة بينما وقائع العلوم الإنسانية غير مباشرة وتتمثل فى المعانى
والأفكار التى تقف وراء ما هو حسى مباشر. الوقائع الأولى تخضع
للتفسير، والثانية تخضع للفهم، وتختلف العلوم الإنسانية أيضا عن
العلوم الطبيعية من حيث المنهج ، فمنهج الطائفة الأولى من العلوم
منهج الفهم الكيفى ، بينما منهج الطائفة الثانية هو المنهج
الاستقرائى. وبالتالي تختلف أساليب البحث فى كل منهما تبعا
لاختلاف المنهج والموضوع .

فكيف يمكن إذن رد العلوم الإنسانية إلى العلوم الطبيعية ؟
(٢) تختلف العلاقة بين الباحث وموضوع بحثه فى العلوم
الإنسانية عن مثيلتها فى العلوم الطبيعية فهى علاقة داخلية فى
الأولى خارجية فى الثانية .

(٣) إن الإسراف واللهث وراء محاكاة العلم الطبيعى واحتذائه
أدى إلى اختزال وتشويه ظواهر العلوم الإنسانية وتفريغها من
خصوصيتها وعزلها عن سياقاتها التاريخية، كما أدى إلى التوجه
نحو ما هو سطحى وبسيط مما يمكن إخضاعه للقياس والإحصاء

وإعمال ما هو كیفى وروحى وخلأق.

غير أن الذاتیین وقد اهتموا بالمعانى والأفكار والرغبات التى تقف وراء الظواهر والى تنفذ إلیها نفاذا كیفیا ذهبوا إلی أن المنهج الفینومینولوجى كما جاء عند «هوسرل» هو الأقرب إلی اتجاهاتهم ، والمعبر عن موقفهم، والفینومینولوجیا فى صورتها الأخيرة تحاول إقامة منهج وصفى تصف فیه بإسهاب كل أنواع الموضوعات فى ماهیاتها البحتة. بحيث لا یكون هذا الوصف ظاهریا أو خاریجا أو حسیا، وإنما یكون وصفا متعمقا لباطن الظواهر، ومدركا لأعماقها الدفینة. ید أن الذاتیین لایوافقون هوسرل فى فكرته عن «تعلیق الحكم» ذلك لأن الإنسان حین «یفهم» فإنه «یحكم» فى نفس الوقت. ومن هنا جاءت إقامتهم لمنهج خاص بالعلوم الإنسانیه وهو منهج الفهم الكیفى.

لایوافق أنصار هذا المنهج وعلى رأسهم «ریکمان» علی ما انتهت إلیه الوضعیه بكافة صورها، ورأوا فى نقطتنا قید البحث أن الموضوعیه فى العلوم الإنسانیه لابد وأن تختلف عن مثیلتها فى العلوم الطبیعیة ، وأن عدم قدرة هذه العلوم على التخلی عن الذاتیه بمعانیها المختلفة تمثل میزة تتميز بها تلك العلوم عن غیرها من العلوم الطبیعیة. ومع هذا فنحن نستطیع أن نتحدث عن الموضوعیه فى مجال العلوم الإنسانیه ولكن بمعنی یختلف عن مثیلها فى العلوم الطبیعیة، إذ إن الموضوعیه تشير فى مجال العلوم الإنسانیه إلی قدرتنا على إیجاد علاقة تربط كل حالة فردیه بهیكل کلی من الأدلة

بحيث نصوص في نهاية الأمر أنساقا ذاتية تمكنا من استبعاد الذات الفردية التي قد تفسد جزءا من البحث العلمي.

إن الموضوعية في العلوم الإنسانية تجعلنا نتحدث عن نتائج أبحاثنا وفق ما انتهت إليه تلك الأبحاث لا وفق ميولنا ورغباتنا، ويقدم لنا ريكيان المثالين التاليين للتدليل على صحة رأيه هذا، يقول في المثال الأول : «لو أن عالما اجتماعيا طبق استبياننا دقيقا على مائة فرد بهدف معرفة أهمية «شرب البيرة» في حياتهم أو عدم أهميتها وانتهى الاستبيان إلى نتيجة مؤداها «أن شرب البيرة يمثل أهمية لهم جميعا» فلا شك أن هذه النتيجة تتسم بالموضوعية، لكن افرض أن الباحث نفسه يكره شرب البيرة ويعتبر شربها بغير ذى أهمية للحياة الإنسانية ومع ذلك احتفظ بالنتيجة التي توصل إليها الاستبيان، ولم يصبغها برأيه الشخصي، فلا شك أن يكون ملتزما بأقصى درجات الموضوعية. والمثال الثاني يذكر فيه ريكيان أن المؤرخ الملحد الذي يدرس كتابات عصر مضى، يكون متسعا بأقصى درجات الموضوعية لو أنه وصل إلى النتيجة القائلة بأن الدين كان هو المحرك الأصلي لفهم ذلك العصر، لأنه كان كذلك فعلا.

على الباحث في العلوم الإنسانية أن يجعل ذاته مستقلة عن دائرة البحث، وأن يجعل فهمه أوصفه غير محتاج لما يجعله مفتقرا للانضباط والدقة، وأن يجرد ذاته من الأحكام الأخلاقية والقيمية، ويضرب لنا ريكيان مثالا يبين لنا فيه الفارق بين موقفين: موقفاً يكون فيه الباحث داخل دائرة البحث ويصبغه بصبغة أخلاقية، وآخر

يكون فيه الباحث خارج تلك الدائرة. فلو أننا كنا نتداول «هلتز» بالدراسة فإن صاحب الموقف الأول سوف يدينه أو يهاجم أفعاله وتصرفاته ويصدر فى النهاية حكماً أخلاقياً عليه باتهامه وإدانته، أما صاحب الموقف الثانى فسوف يكتفى بوصف أفعاله بون أن يصدر عليه حكماً أخلاقياً لكن باحث العلوم الإنسانية هو إنسان قبل أى شئ وهو باعتباره كذلك لا يمكنه تحاشى رغبته فى استخدام أبحاثه للتحذير من الشر والدعوة إلى تبنى ما يكون قريباً إلى قلبه أو أيديولوجيته .

فنحن كديمقراطيين نكون شغوفين ببيان أن التاريخ يكشف عن شروء الطغيان، ونحن كمحافظين نكون بحاجة إلى بيان النتائج للأخلاقية الناجمة عن الطفرات الراديكالية المفاجئة .

ويرى ريكمان أنه على الرغم من أننا نرغب فى التعبير عن اعتقاداتنا الأخلاقية إلا أن ذلك لايعنى صلب أبحاثنا بتلك الاعتقادات، فحين يعبر المؤرخ مثلاً عن اعتقاداته للأخلاقية فإنما يكون ذلك من أجل استبعاد تأثيرها عن بحثه ، أو لكى يسمح لقارئه أن يسقطونها من حساباتهم عند قراءته. إن على المؤرخ كباحث أن يميز بين واجب الوصف المفروض عليه من الوقائع ذاتها وبين مسئولية الحكم الذى يصدر منه باعتباره إنساناً .

وهكذا تؤدى الممارسة فى إطار العلوم الإنسانية إلى تدعيم الفعل بين ماهو ذاتى وبين ماهو موضوعى ، وبالتالى تدعيم الاتجاه الموضوعى.

أهم مراجع ورقة العمل

مراجع عربية :

- (١) د. عبد الباسط عبد المعطى - البحث الاجتماعى محاولة نحو رؤية نقدية لمنهج وأبعاده- دار المعرفة الجامعية - ١٩٨٧.
- (٢) د. على عبد المعطى محمد - رؤية معاصرة فى علم المناهج - دار المعرفة الجامعية ١٩٨٧.
- (٣) د. صلاح قنصوه - الموضوعية فى العلوم الإنسانية - دار التنوير والنشر بيروت - ١٩٨٤.

مراجع أجنبية:

- 1) Buchahl : Induction and the Scientific Method, Mind 60, 1951
- 2) Navilles E : The Structure of Science , London, 1961.
- 3) Rickman ' H: Understanding and the Human Studies, London 1967.

المنهج الفلسفى

د. حسن حنفى (*)

(١) فيلسوف مصرى معروف، أستاذ الفلسفة بأداب القاهرة .

١- مقدمة : المنهج عند كل الشعوب

ليس المنهج حكرا على شعب بعينه أووقفا على ثقافة بعينها أو قصرا على حضارة خاصة بل هو عام عند كل الشعوب، ومعروف فى كل الثقافات، وموجود فى كل الحضارات. ونظرا لسيادة الثقافة الغربية فى العصور الأوروبية الحديثة وتصدرها ثقافات العالم حتى أصبحت مركزا، وثقافات العالم محيطها، ارتبط المنهج بالفلسفة الغربية، وتوارت المناهج فى الفلسفات الأخرى شرقية أو إسلامية وذاعت المناهج الغربية خارج حدود الغرب فى الثقافات الشرقية والإسلامية. فازدوجت الثقافات اللاغربية بين مناهج غربية ومناهج وطنية، مناهج تجزيئية ومناهج كلية، مناهج تميز بين المنهج والموضوع ومناهج توحد بين المنهج والموضوع، مناهج صورية عقلية أو تجريبية من أجل المعرفة ومناهج تجمع بين المعرفة والسلوك، بين النظر والعمل، بين الحق والخير والجمال، بين المعرفة والأخلاق والفن، بين الفكر والحياة .

ينشأ المنهج فى كل حضارة بناء على ظروفها وتاريخها، ومن خلال نشأتها وتطورها، وطبقا لتكوينها وبنيتها. فالحضارة الغربية عرفت بأنها حضارة المنهج لأنها فى نشأتها القديمة سادها المنطق اليونانى خاصة فى العصر الوسيط بعد التحول من أفلاطون فى عصر آباء الكنيسة إلى أرسطو فى العصر المدرسى. وفى بداية العصور الحديثة بدأت القطيعة المعرفية بين الحاضر والماضى بعد أن اكتشف العقل وصدقته التجربة تعارض- أرسطو والكتاب المقدس

وأقوال الآباء مع مراجعة العقل والحس وتم إسقاط الغطاء النظرى المعرفى الموروث، وأصبح الواقع عاريا من كل نظرية فتدخل العقل من أجل إيجاد بديل نظرى والبحث عن طرق بديلة للمعرفة اعتمادا على اليقين الجديد، يقين البداهة العقلية والبداهة الحسية. ولولا هذه القطيعة المعرفية فى بدايات العصور الحديثة لما نشأت هذه الثورة المنهجية، ولما بدا بهذا القلق المنهجى فى الغرب .

أما فى الشرق، فى الصين واليابان والهند، فلم تحدث هذه القطيعة المعرفية بين الماضى والحاضر، وتبنت الثقافات الشرقية نموذج التجديد والتطوير الذى انتهى إلى استبقاء المناهج التقليدية فى الحياة الخاصة وتقليد المناهج الغربية فى الحياة العامة. ولما كان الفن والصناعات الحرفية التقليدية وأساليب الحياة اليومية أقرب إلى الحياة الخاصة فقد سادتها المناهج التقليدية التى لا تهدف إلى المعرفة وحدها بل أيضا إلى السلوك ، جامعة بين النظر والعمل، بين النظرية والتطبيق، ارتبطت الأصالة بالمناهج التقليدية، وارتبطت المعاصرة بالمناهج الغربية. أصبحت المناهج التقليدية تعبيرا عن الهوية، والمناهج الغربية تعبيرا عن الاختلاف، الأولى تعبيرا عن الصدق والثانية تحقيق للمنفعة. ولفظ المنهج ليس غريبا على الحضارة الإسلامية، فقد ظهر فى كتاب ابن رشد الشهير فى صيغة الجمع - الكشف عن مناهج الأدلة فى عقائد الملة، والتعريف بما وقع فيها من الزينغ والبدع المضللة «فالمنهج»، هنا يفى الطريق، و«مناهج» طرق الاستدلال فى فهم العقائد التى تؤدى إلى التمييز بين الفهم

الصحيح والفهم الفاسد، بين العقيدة والبدعة، ليس فى الرياضيات والعلوم الاستنباطية أو فى الطبيعيات والعلوم التجريبية. كما استعمل لفظ نهج فى الثقافة الإسلامية كما هو الحال فى «نهج البلاغة» المنسوب إلى على بن أبى طالب. ويعنى أيضا الطريق ، طريق الكلام. والكلام ليس مجرد صوت بل هو تعبير عن فكر ورؤية ومعايير للسلوك .

كما أن اللفظ ورد فى القرآن الكريم «ولكل جعلنا شريعة ومنهاجا»، واستعمل لفظ المنهاج وليس المنهج. فالمنهاج هو الطريق أو الشريعة فى حين أن المنهج مجرد طريقة فى الاستدلال. المنهاج أسلوب حياة، نظام أخلاقى واجتماعى وسياسى فى حين أن المنهج أقرب إلى طريقة النظر، وفى الحضارات الشرقية كان المنهج والموضوع شيئا واحدا. فلا يوجد منهج مستقل عن الموضوع، آلة خارجة عن تطبيقها فى ميدان. المنهج موضوع متحقق، والموضوع منهج مطبق. والوعى متحد بهما معا. الموضوع يفرض منهجه من ذاته، والمنهج يفرض موضعه من ذاته. هكذا كان يفعل صانع الخزف فى الصين، (الرسام فى اليابان، والمثال فى الهند، والفنان فى مصر القديمة.. وحدة المنهج والموضوع وجمدة مبدئية، وحدة الذات والموضوع، الطريق والغاية، المقدمة والنتيجة، البداية والنهاية، الخلق والبعث، إذا وضع المنهج وضع موضوعه، وإذا وضع الموضوع فُرض منهجه .

وفى الغرب بدأ المنهج معاديا للموضوع لأن الموضوع كان معاديا

للمنهج قبل العصور الحديثة. كان الإيمان تسليما برون برهان، وكان أرسطو المعلم الأول، المعصوم الذى لا يخطئ، وكانت أقوال الآباء أيضا تعبيراً عن تجسد الروح القدس فى التاريخ. ثم انهار كل ذلك بعد إعمال العقل والالتجاء إلى التجربة. ونشأت المناهج معادية لموضوعاتها فى بداية العصور الحديثة. العقل متربص باللاعقل، والتجربة معادية للنظر. المنهج ضد الموضوع، والموضوع ضد المنهج، العقل لا يقبل إلا ما كان عقلياً متسقاً مقدماته مع نتائجها. ووجد ضالته فى الرياضيات التجربة لا تقبل إلا ما كان محسوساً قابلاً للقياس فوجدت فى المحسوسات والمجربات والظواهر الطبيعية ضالتها. مقياس الصدق فى المنهج العقلى اتساق المقدمات مع النتائج، وفى المنهج التجريبي تطابق الحكم مع التجربة. كان الموضوع ضد المنهج فى العصر الوسيط فأصبح المنهج ضد الموضوع فى العصور الحديثة. ولم يقع الوثام بين المنهج والموضوع إلا أخيراً فى الظاهريات فى نهاية العصور الحديثة، والحضارة الغربية على وشك الأفول، والعصور الحديثة على وشك غلق الأقواس

وفى الحضارة الإسلامية تتأكد وحدة المنهج والموضوع كما هو الحال فى الحضارات الشرقية. فالوحي وهو الموضوع الأول ما هو فى نفس الوقت منهج العقل والبرهان نظراً لموافقة صحيح المنقول لصريح المعقول. والطبيعة أيضاً الموضوع الثانى لها تخضع لنظام العقل من خلال القانون. فنسق الطبيعة هو نسق العقل. والنظر فى

الأفاق وفى النفس يؤدى إلى نفس الحقيقة، وفى الأرض وفى النفس آيات اليقين . والتأويل هو أداة الربط بين العقل والوحى إذا ما بدا تعارض ظاهرى بينهما من أجل التأكيد على وحدة المنهج والموضوع.
ثانيا: المنهج فى الغرب:

ارتبط المنهج فى الغرب بمنطق اليونان بحيث لم يعد هناك فرق بين المنهج والمنطق. المنطق هو منهج الفلسفة لما كانت الفلسفة هى علم البرهان، ولما كان الغالب على منطق اليونان منطق القضايا الذى يقوم فى معظمه على الشكل وليس على المضمون كان مقياس الحقيقة فيه اتساق النتائج مع المقدمات، يكون العلم صحيحا ما دامت أشكال الفكر فيه صحيحة . وقد اخص المسلمون ذلك فى قولهم: المنطق أما تصور أو تصديق، والتصور ينال بالحد، والتصديق ينال بالبرهان، أما الاستقراء فقد كان هامشيا فى المنطق بالرغم من الاتجاه الطبيعى التجريبي عند أرسطو .

وكان المنطق نوعين، وكما اخص المسلمون، منطق اليقين: المقولات، والعبارة، والقياس، والبرهان، ومنطق الظن: الجدل، والسفسطة، والخطابة ، والشعر كان الفلاسفة يستعملون منطق اليقين فى حين كان السوفسطائيون والخطباء والشعراء يستعملون منطق الظن. ولم تكن هناك غلبة لأحد المنطقيين على الآخر، وكانت ممارسة التفلسف والكلام سابقة على تطبيق قواعد المنطق. كانت هذه القواعد مجرد تجريد للتفكير والكلام بالفعل، فلما جاء عصر أباء الكنيسة فى القرون الخمسة الأولى كان منطق الظن هو السائد على

منطق البرهان. فقد كان آباء الكنيسة الأوائل فى معظمهم خطباء، وكانت الخطابة أحد وسائل الدفاع عن الدين عند المحامين والوعاظ الآباء. كانت أساليب البلاغة وطرق البيان أسرع فى الإقناع، وأقوى فى الإيحاء، وأقرب إلى الثقافة الشعبية وإيمان العوام. وقد قوى ذلك اعتماد عصر الآباء على أفلاطون الذى تسود فلسفته الأسطورة والشعر وفنون الأدب والبلاغة.

وفى العصر الوسيط المتقدم من القرن التاسع حتى القرن الحادى عشر أو المتأخر من القرن الثانى عشر حتى الرابع عشر نحو المنطق من منطق الظن إلى منطق البرهان، ومن الجدل والسفسطة والخطابة والشعر إلى المقولات والعبارة والقياس والبرهان. فقد تحول الاختيار من أفلاطون إلى أرسطو بعد أن اكتشفه بونتيوس فى القرن الخامس فى نهاية العصر الكلاسيكى، وقام بشرحه وتقديمه للناس. وكان لترجمة الفلسفة الإسلامية، أثر كبير فى هذا التحول من الخطابة إلى البرهان، ومن الإقناع إلى الاستدلال. فقد قدم الإسلام نموذج وحدة الوعى والعقل والطبيعة فى مقابل النموذج السائد مفارقة الوعى للعقل والطبيعة وكبديل عنه.

سادت - العصر الوسيط الفنون - الحرة السبعة: الثلاثى، المنطق والنحو والبلاغة، والرباعى: الحساب، والهندسة، والموسيقى، والفلك.. ومن الثلاثى ساد المنطق على النحو والبلاغة، وفى الرباعى ساد نظام العقل تحت تأثير علماء المسلمين. كان المنهج هو التلقين والتعليم من أجل إعطاء ثقافة العصر. ثم بعد ذلك يبدأ الجدل دفاعاً عن العقيدة

والنقاش بين الخصوم كما هو الحال فى جدل المتكلمين .
وأضاف العصر الوسيط على المنهج الاستدلالى القديم منهج
التأويل كما بدا فى نظرية المعانى الأربعة للنص الدينى: المعنى
الحرفى، والمعنى المجازى، والمعنى الأخلاقى ، والمعنى الروحى.
أصبح المنهج فى مواجهة موضوع وهو الكتاب المقدس بعد أن كان
فى مواجهة عقيدة فى عصر الآباء أو فى مواجهة نفسه عند اليونان.
ونشأ الصراع بين أنصار المعنى الحرفى من ناحية وأنصار المعانى
المجازية والأخلاقية والروحية من ناحية أخرى كما هو الحال بين
الأشاعرة والمعتزلة أو بين المتكلمين والفلاسفة دفاعا عن اللفظ حتى
ولو أدى إلى التشبيه أو دفاعا عن المعنى حتى ولو أدى إلى التنزيه .
وفى العصور الحديث بدأ المنهج فى التطور بعد القطيعة المعرفية
بين الماضى والحاضر، ورفض المصادر القبلية للمعرفة، الكتاب
المقدس، وأقوال الآباء، وأرسطو، وبطليموس، بدأ العقل يواجه نفسه،
ما مقياس الصدق؟ ويواجه الطبيعة ما مقياس التحقق؟ وبدأ الوعى
الأوروبى يضع نفسه منهجيا على نحو ثنائى: منهج عقلى ومنهج
تجريبى . الأول مستنبط من الرياضيات والثانى مستقى من العلوم
الطبيعية. أسس الأول ديكارت ، والثانى بيكون.
قام المنهج العقلى على نقطة بديهية هى الكوجيتو «أنا أفكر فأنا
إذن موجود» ولكى يكون الفكر صحيحا عليه اتباع قواعد أربع :
الأولى الوضوح والتميز فى إدراك الأشياء، الشئ الواضح بذاته،
المتميز عن غيره والثانية التحليل، تحليل الأشياء لو كانت مركبة من

أجل إدراك كل جزء منها على حدة بوضوح وتميز. والثالثة التركيب
تركيب الأجزاء فى كلها الأول. والرابعة المراجعة للتأكد من صحة
القواعد وحسن التطبيق وعدم الخطأ أو النسيان. ويسبق ذلك الشك
فى كل الموروث من أجل تطهير العقل من كل التلقين السابق وتقليد
القديماء،

وقام المنهج التجريبي على نقطة بديهية أخرى هى أن الحواس
مصدر للمعرفة وأن صدق الحكم فى مطابقته للواقع من خلال
الحواس، وبالتالي تم استبعاد كل ما لا يمكن التحقق من صدقه فى
الواقع المشاهد والعالم المدرك، ويتم ذلك بعد تطهير الذهن من أوهام
الجنس وكل ما يتعلق بأوهام الإنسان من حيث هو كذلك، ومن أوهام
الكهف وكل ما يتعلق بالمزاج الفردى، ومن أوهام السوق وكل ما
يتعلمه الفرد من الناس بون التحقق من صدقه، ومن أوهام المسرح
وهو ما تراكم عبر المعارف التاريخية الطويلة من الروايات والمرويات.
ثم جاءت مرحلة ثانية فى الفكر المنهجى الغربى عندما تحول
العقل إلى جدل، والتجربة إلى تحليل، فقد كان العقل فى القرن
السابع عشر صوريا رياضيا فارغا ثم تحول إلى خطابة ومقال
والتثوير للجماهير فى القرن الثامن عشر عند فلاسفة التثوير ،
فقامت الثورة الفرنسية، ومن ثم برز العقل الجدلى القادر على إدراك
التناقضات فى الفكر بين الملكية والثورة، بين الشيء ونقيضه،
وتأسس المنهج الجدلى عند هيغل من أجل الكشف عن التناقضات
فى الفكر والواقع، فى العقل والتاريخ، واستطاع المنهج الجدلى فهم

كل شيء وتركيب كل تناقض. ثم تحول على يد ماركس إلى جدلى مادى فى المادية الجدلية راداً الروح إلى المادة بعد أن ردها هيغل إلى الروح، كما تحول على يد انجلز إلى جدل الطبيعة بعد رد العقل إلى الطبيعة ثم حدث رد فعل عليه فى المنهج التحليلى من أجل العودة من جديد إلى الجزء لا الكل وإلى المتناهى فى الصغر وليس المتناهى فى الكبر. فالتحليل رد فعل على التركيب. وطبق التحليل المركبات الحسية فنشأت الوضعية، كما طبق فى اللغة فنشأت الوضعية المنطقية. ثم تحول التحليل من مجرد منهج إلى فلسفة فى الفلسفة التحليلية. وقد راجت حتى أصبح العصر كله عصر التحليل، والحضارة الغربية كلها حضارة التحليل.

وفى المرحلة الثالثة بدأ الوعى الأوروبى يتجاوز ثنائياته المنهجية الأولى المنهج العقلى والمنهج التجريبي، وثنائياته المنهجية الثانية المنهج الجدلى، والمنهج التحليلى إلى وحدة المنهج، المنهج الظاهراتى أو المنهج الشعورى الذى يحلل الظواهر باعتبارها تجارب حية فى الشعور. فالظاهرة معنى، يدركه الشعور إدراكا مباشرا لتحويل هذا المعنى إلى ماهية. ويتكون هذا المنهج من ثلاث خطوات الأولى التوقف عن الحكم على الأشياء المادية الموجودة فى المكان، خارج الشعور قبل أن تتم عملية الإدراك، ووصفها بين قوسين، وإخراجها خارج دائرة الانتباه. والثانية بناء الماهية فى الشعور وقلب النظرة من الخارج إلى الداخل ومن المكان إلى الزمان. فيتحول الخارج إلى الداخل ويصبح الشعور ذاتا وموضوعا فى نفس الوقت قصداً

متبادلا بين قالب الشعور ومضمون الشعور، بين العقل والتجربة، ثم تأتى التجربة المشتركة من أجل إعطاء اليقين لتحليل الشعور الفردى. فالموضوعية إنسانية وليست تجريبية، اتفاق الماهية بين النوات وتطابق التجربة مع الآخرين. والثالثة الإيضاح حتى لاتختلط الماهيات. فالظاهريات أيضا نظرية فى الوضوح فى النهاية وليس فى البداية ، بعد عملية الإيضاح .

وفى المرحلة الرابعة والأخيرة عاد الفكر المنهجى الغربى إلى ثنائياته العدمية من جديد فى المنهج البنيوى الذى أراد التركيب من جديد، تركيب الظواهر فى بنىات صورية مجردة فى الذهن أم فى الواقع ثم فى المنهج التفكيكى الذى أراد تفكيك البنية والانتهاى إلى لا شىء واتجه المنهج البنيوى إلى اللغة والأساطير والفكر البدائى كما وضح ذلك فى الانتروبولوجيا. ثم تحول إلى علم النفس والتحليل النفسى، وتاريخ العيادات النفسية والجنون ودراسة المرضى والمهمشين والخارجين على القانون .

ثم حدث رد الفعل الأخير على البنيوية فى المنهج التفكيكى الذى يريد إنهاء العقل وآلة العقل والانتهاى إلى لا شىء. فالفكر كتابة، والكلام صوت، والمعنى حرف، والأشياء كلمات، والوجود عدم . انتهى التركيب والنظام والنسق إلى يمر رجعه ، ولم يعد يبقى إلا التحليل والفوضى والعدمية. ينخر التفكيك فى كل شىء حتى لا يبقى ما يفككه فيفكك ذاته ، وينتهى العالم كما بدأ أول مرة دون بحث أو حساب .

ثالثاً: المنهج عند المسلمين

استعمل المسلمون كلمة طريق ، وغالباً فى صيغة الجمع «طرق» للدلالة على المنهج والمناهج فى «طرق النظر» ، بالرغم من استعمال ابن رشد للفظ «مناهج» وعلى بن أبى طالب لفظ «نهج القرآن الكريم لفظ «مناهج».

ظهر المنهج عند المتكلمين فى نظرية العلم، المقدمة الأولى فى علم الكلام، إجابة على سؤال كيف أعلم؟ تستبعد الشك والظن والوهم والجهل والتقليد، ويستبقى العلم كمطابقة مع المعلوم. والعلم بديهى ضرورى أو استدلال نظرى، والطريق اليه النظرة، فالنظر الصحيح يفيد العلم. والنظر واجب بالسمع والعقل. بل هو أول الواجبات. وطرق النظر: التعريف، والاستدلال، والقياس، وقياس الغائب على الشاهد أو التمثيل. والمقدمات قد تكون قطعية أو ظنية. والأدلة نقلية أو عقلية. والدليل النقلى وحده ظن لأنه يعتمد على اللغة وأسباب النزول والناسخ والمنسوخ والمحكم والمتشابه ، والظاهر والمؤول ، والمجمل والمبين، وقد ظهر هذا المنهج بوضوح فى مشكلة العقل والنقل بين المعتزلة والأشاعرة، العقل أساس النقل عند المعتزلة لذلك وجب التأويل فى حالة التعارض حفاظاً على التنزيه، والنقل أساس العقل عند الأشاعرة ولو أدى ذلك إلى التشبيه. وفى كلتا الحالتين المنهج الكلامى منهج دفاعى، يعقل الإيمان ولا يتساعل عنه. كل فرقة تجادل فى فهمها وتؤيّلها العقائد دفاعاً عن نفسها وهجوماً على الفرق الأخرى. فتحول الجدل إلى مقارعة للخصوم من أجل الانتصار

عليهم وإثبات الفرقة الناجية فى مقابل الفرق الضالة. لذلك نذ الفقهاء الكلام والمتكلمين، وأدانوا الجدول والمجادلين اعتمادا على نقد القرآن للجدول، «وكان الإنسان أكثر شىء جدلا».

ثم حول الفلاسفة الجدول إلى برهان... واستعملوا المنطق طريقا إلى اليقين، وأصبحت المتحولات والعبارة والقياس مقدمات إلى البرهان فإذا ما نقص البرهان ظهر الجدول والسفسطة والخطابة والشعر وقد أحكم الفلاسفة المنهج العقلى البرهانى وعرف ابن رشد الفلسفة بأنها النظر فى الموجودات بحسب ما تقتضيه طبيعة البرهان، ولم تعد الفلسفة بحاجة إلى تبرير الدين كما كان الحال فى علم الكلام لأن الفلسفة والدين حقيقة واحدة وغاية واحدة وإن اختلفا الطريق إلى الفلسفة عن طريق العقل، والدين عن طريق الوحي كما بين الكندي وفى حالة التعارض فإن التوفيل يدرأ هذا التعارض ، فلقد تم التعبير عن الوحي مجازا من أجل مخاطبة أكبر عدد ممكن من الناس بصرف النظر عن مستوى تعليمهم . أما الخاصة فهم القادرون وحدهم على البرهان، وأصبح العقل مركز كل شىء، الله العقل الفعال، والإنسان العقل المنفعل أو العقل بالقوة أو العقل بالملكة أو العقل المستفاد حتى يصير عقلا بالفعل والإنسان حيوان ناطق، وأهم قوة فى النفس القوة الناطقة.

ثم حدث رد فعل على هذه العقلانية الشاملة، الجدلية عند المتكلمين والبرهانية عند الفلاسفة فى منهج النوق عند الصوفية، النوق فى مقابل النظر، والإشراق فى مقابل الاستدلال، والقلب فى

مواجهة العقل، والبصيرة فى مواجهة البصر. فالمعرفة على مستويات. المعرفة الحسية من خلال الحواس وتعطى ظاهر الموجودات. ثم المعرفة العقلية من خلال العقل وتعطى صورة الموجودات، والمعرفة الكشفية من خلال القلب وتعطى حقيقة الموجودات الأولى علم اليقين، والثانية حق اليقين، والثالثة عين اليقين، وهو منهج عملى قبل أن يكون نظريا.. يقوم أولا على الرياضات والمجاهدات قبل أن يكشف الله الحجاب. يبدأ بالطريقة كى يصل إلى الحقيقة والناس على مراتب فى العلم، العامة ولهم المحسوسات، والخاصة ولهم المعقولات، وخاصة الخاصة ولهم الدوافع والطواع والدوافع. ويتكون الطريق من الأحوال والمقامات. فالأحوال تحصل من عين الجود، والمقامات ببذل المجهود، الأحوال علامات على الطريق تنبئ السالك بعبور المرحلة. وهى علامات مزبوجة بين السلب والإيجاب مثل الخوف والرجاء الهيبة والأنس، السكر والصحو والفقد والوجد، السلب عندما يعبر إلى المرحلة التالية، والإيجاب بعد أن يتعود عليها، والمقامات مثل التوبة، الشكر، الفقر، الزهد، الرضا، الصبر، التوكل، الورع، الغناء. المنهج الصوفى إذن منهج صاعد، طريق إلى الله، إسقاط الأوصاف الدنية والتحلّى بالأخلاق الإلهية. فلا يرى الصوفى إلا بعين الله مثل وحدة الشهود ثم يصبح صعود الله والعالم شيئا واحدا كما هو الحال فى وحدة الوجود .

ثم جاء رد فعل على هذا كله فى المنهج الأصولى فى علم أصول الفقه الذى يرفض أن يجعل المنهج مجرد جدل أو نظرية بل هو فهم

علمى لتحقيق الشرع، وليس العمل هو الطريق الصوفى، فهو طريق فردى ذاتى، محفوف بالمخاطر، يعنى بالتأويل، ويترك التنزيل، يصعد بالإنسان إلى الله دون أن ينزل بالشرع إلى العالم. ويقوم المنهج الأصولى على وضع منطق للأفعال يسمى الأحكام التكليفية وجعلوها خمسا. الفرض أو الواجب وهو الضرورى إيجابا وعكسه المحرم أو المحظور وهو الضرورى سلبا، ثم المنسوب وهو الاختيارى إيجابا وعكسه المكروه وهو الاختيارى سلبا، وما بين الإيجاب الضرورى والاختيارى والسلب الضرورى والاختيارى هناك الحلال أو المباح، الطبيعى الذى تكمن الشرعية فى وجوده، البراءة الأصلية والنظرة الأولى، هذه الأحكام التكليفية الخمسة من جهة الفاعل تقوم على أحكام وضعية خمسة أخرى من جهة ميدان الفعل. فكل فعل له سبب، وشرط، ومانع، ويؤدى عزيمة أو رخصة، ويكون صحيحا أو باطلا، السبب مثل الصلاة للتقوى، والشرط مثل الوضوء، والمانع مثل الحيض، والعزيمة وقوفا والرخصة قاعدا أو مستلقيا، والصحة عدد الركعات والبطلان الزيادة عليها أو النقصان منها فالفعل حر له عدة مستويات من الوجوب ويتحقق فى ميدان متشابه فى عالم ضرورى. ويقوم منطق الفعل من أجل تحقيق المقاصد، مقاصد الشارع ومقاصد المكلف ومقاصد الشارع أربع: وضع الشريعة ابتداء تعبيراً عن المصالح العامة فالمصلحة أساس التشريع، ثم وضع الشريعة للاقتناع أى للاقتناع الحر، ثم وضع الشريعة للإفهام أى لفهمها دون إجبار وأخيرا وضع الشريعة للتكليف أى للتحقيق كنظام طبيعى

مثالى للعالم.

ومن أجل الحصول على هذه الثمرة يطبق منطق اللغة المزبوج على مصادر الشرع الأربعة: الكتاب، والسنة، والإجماع والقياس مثل: الظاهر والمؤول، الحكم والمتشابه، المجلل والمبين، المطلق والمقيد، العام والخاص، الامر والنهى لبيان أبعاد النص المختلفة كصورة فنية أو كتعدد فى المواقف أو كتوضيح لمعنى أو كتطبيق على حالة خاصة فردا أو جماعة أو توجيهها لفعل إيجابى أو سلبى ويؤخذ فى الاعتبار أيضا السياق، لحن الخطاب، وقوى الخطاب، والمسكوت عنه، ما لم يصرح به الشرع إلا بالإشارة .

أما مصادر الشرع فالكتاب الذى أعطى الوحي فيه، فى المكان بدليل أسباب النزول، وفى الزمان بدليل الناسخ والمنسوخ، والسنة أول تطبيق للوحي فى التاريخ كتجربة نموذجية، والإجماع الوعى الجماعى فى الاستدلال والمشورة، وأخير الاجتهاد والوعى الفردى لإعمال النظر وإبداء الرأى القائم على تحليل العلل، وتعدية الحكم من الأصل إلى الفرع لتشابه بينهما فى العلة.

هذا أيضا منهج كلى شامل يجمع بين النظر والعمل، بينا المنطق والسلوك، بين العقل والتجربة، بين الاستنباط والاستقراء، بين الاستدلال الفردى والاستدلال الجماعى، بين المعرفة المباشرة عن طريق الحس والعقل والوجدان والمعرفة التاريخية عن طريق الرواية وهو المنهج الذى أبقى على المسلمين فى التاريخ وحفظ لهم إبداعهم واستقلالهم الحضارى .

رابعاً: خاتمة التنظير المباشر للواقع :

والآن وبعد استعراض المنهج فى الغرب وعند المسلمين ، ما موقفنا من هذه الازدواجية المنهجية بعد أن سادت مناهج الغرب المتعددة ونقلنا فى ثقافتنا صراعاها التاريخى والعلمى حتى توارى فكرنا المنهجى القديم تحت دعوى الفكر الدينى أو الفكر القديم فى مقابل الفكر العلمى أو الفكر الحديث؟ ما العمل أمام هذه التجزئة المنهجية الوافدة من الغرب والاجفاف بالموروث تكراراً للأفكار الشائعة أو استسهالاً للتقليد؟

مما لاشك فيه أننا منذ مائتى عام، ومنذ فجر النهضة العربية الحديثة نصارع التقليد وندعو إلى أعمال العقل سواء فى تيار الإصلاح الدينى أو فى الفكر السياسى الليبرالى أو فى التيار العلمى العلمانى. وقد أصبح العقل والعقلانية والتنوير إحدى مطالب العصر. وإذا كنا ما زلنا نعانى من سيادة اللامعقول وغياب الترشيد والتخطيط فإن التنظير المباشر للواقع اعتماداً على المنهج العقلى كحاجة من حاجات العصر بصرف النظر عن نشأته فى وعينا المعاصر من الوافد أو من الموروث ضرورة ملحة نظراً لغياب التخطيط الكلى فى الحياة الخاصة والعامة. وكثيراً ما حكم المفكرون العرب المعاصرون على حياتنا الفكرية والثقافية بالخطابة والإنشائية والشعرية والصوتية والكلامية والانفعالية مع التركيز خاصة على الخطاب السياسى والخطاب الإعلامى. وهنا تبدو الحاجة إلى المنهج

العقلى الواضح الخطوات من أجل المساهمة فى الانتقال من مرحلة
الخطابة إلى مرحلة التفكير، ومن بلاغة الانشاء إلى منطق الفكر.

ولما كان العقل مجرد أداة فإن موضوع التفكير هو الواقع
والتحديات العصرية من احتلال وتخلف وتجزئة وقهر وتبعية وسلبية
وضياع، ولا يمكن معرفة هذا الواقع معرفة انطباعية كما يفعل
الروائي أو الشاعر، معرفة كيفية خالصة لا يختلف عليها المبدع
والمتلقي. المعرفة الاحصائية الكمية ضرورية لمعرفة مكونات الواقع
والبنية الاجتماعية، فلغة الاحصاء خير دليل على صدق الفكر : آثار
الاحتلال ومظاهره الكمية فى فلسطين ولبنان، مدى التجزئة وعمقها
ومظاهرها وأسبابها، ألوان القهر وأنواع القوانين المقيدة للحريات
وكيفية صدها، مدى التبعية فى الغذاء والسلاح والتعليم،
ومقدار السلبية فى المشاركة فى الحياة العامة بمؤشرات دقيقة
خاضعة للقياس. لم يعد الفكر خطابة بل هو حكم كمى من أجل
تغيير الدافع وإعادة التفاعل بين مكوناته وتوجيه مساره، هكذا فعل
الأصولى القديم فى مناهج البحث عن العلة منها السبر والتقسيم،
إحصاء العلل احصاء كاملا تم تحييدها إلا واحدة تخضع للتجربة
لمعرفة هل هى العلة الفاعلة أو الفاعلة أو المؤثرة أم الملائمة أو
المناسبة ومن هنا لا يستبعد التنظير المباشر للواقع المنهج التجريبي
الاحصائى الاستقرائى الذى يستطيع اعطاء صورة للواقع الذى يتم
التعبير عنه بالقول والتنظير له بالفكر.

كما يتضمن التنظير المباشر للواقع بالإضافة إلى مناهج العقل

والاستدلال من ناحية ومناهج الحس والتجربة من ناحية أخرى مناهج الإدراك المباشر وتحليل التجارب الحية الفردية والاجتماعية، الإحساس بالناس والتاريخ بالأزمة والقهر، بالماضى والحاضر، وحمل مفهوم المستقبل للعالم والمواطن. فالعلم قضية ، والبحث التزام، والمعرفة تحقق .

إن التحدى الآن ليس هو الأزمة بل المدخل إليها، ليس القضية بل طريقة التعامل معها ومعالجتها، فالأزمة فى المنهج قبل أن تكون فى الموضوع. فالموضوع واحد منذ مائتى عام لماذا تخلف المسلمون وتقدم غيرهم كما سأل شكيب أرسلان، أسباب التخلف وشروط النهضة كما عرض مالك بن نبي . والأزمة فى كيفية المقاربة، التشخيص والحل، الوصف والمخرج، الإدراك والتغيير . لذلك كانت معظم الاكتشافات الفكرية والعلمية ونقاط التحول فى تاريخ الحضارات اكتشافات المنهج وتحولات المنهج. وقديما قال عمر بن الخطاب إن نصف الإجابة فى طريقة وضع السؤال .

المنهج في دراسة الحضارات

د. محمد علي الكردي (*)

(*) أستاذ الحضارة الفرنسية بجامعة الاسكندرية.

لعل أصوب مدخل الحديث عن قضية المنهج أو المناهج فى أي مجال من مجالات العلوم سواء أكانت دقيقة أو غير دقيقة، ونقصد بالدقيقة العلوم المنضبطة (رياضية أو تجريبية) والتي تسمى حاليا فى لغة الحاسبات الآلية «صلبة» (hard)، وبالعلوم غير الدقيقة العلوم الإنسانية التي تعرف، فى الأغلب ، بعدم موضوعيتها الكاملة لارتباطها بذاتية الباحث من جهة، وبالرؤى الثقافية والأيدولوجية المختلفة للدارسين من جهة أخرى نقول إن أصوب مدخل للحديث عن مناهج العلوم هو البدء الذى يتتبع أصول الكلمات والغوص بحثا عن جذورها. وذلك بقدر ما يشكل تاريخ أى لغة من لغات العالم أصدق مرآة لحياة الشعوب ودرجة تطورها وتقدمها. ومن الطريف حقا أن ترتبط كلمة «الحضارة» (civilization) فى العربية وفى اللغات الأوروبية بالحقل الدلالى نفسه الذى يردها إلى عالم الحضر والمدينة، وأن تقترب المفردة الأخرى - التى تقرن بها - وهى مفردة «الثقافة» (culture)، وإن لم تتطابق تماما بين العالم العربى والعالم الغربى، لتألف حول حقل الزرع والحراث والإعداد والتشذيب والتهذيب، ولعلكم تذكرون قول عنترة، فى هذا المعنى الأخير ، واصفا رمحه :

جادت يداى له بعاجل طعنة * بمثقف صدق الكعوب مقوم
وكما أن مفهوم الحضارة والثقافة سوف تزوج معانيه وتتأرجح دلالاته فى العربية بين الإيجاب والسلب، فإننا نعثر على الظاهرة عينها فى الحضارة الغربية. ذلك أن حياة الحضر تفترض، من غير

شك، تقدما فى العمران وازديادا فى وسائل الراحة والرفاهية، ولكنها قد تعنى، فى الوقت نفسه، ضروبا من التكلف والزيف والرياء. على هذا النحو نرى كاتبا كبيرا مثل «جان - جاك روسو» ينبرى لشجب المدنية الحديثة وإدانة ما يقدمه مجتمع الحضار من عروض ومشاهد وفنون تهدد الفطرة أو السليقة «الطيبة» للإنسان، تماما كما نرى أبا الطيب المتنبى يشجب الجمال الصناعى الذى تتكلفه نبات الحضار ويثنى على حسن البدويات اللواتى يتميزن بالبساطة والجمال الطبيعى :

ما أوجه الحضار المستحسنات به * كأوجه البدويات الرعابيب
حسن الحضارة مجلو بتطرية * وفى البداوة حسن غير مجلوب
وكذلك شأن الثقافة، فهى كما رأينا، تفيد الإعداد والتهذيب وتشير إلى الحظ والمهارة، وتؤدى إلى السيطرة على الطبيعة والظفر على الخصوم والأعداء؛ ولكنها، مثل العلم أو الإعلام المضلل، قد تستخدم استخداما سيئا وقد تحول إلى ما لا ينفع وإلى ما يزيد من شرور الدهر ونكباته. ألم يقل أبو الطيب هو الخبير بشئون الحياة وبواهيها:

وكأننا لم يرض فينا بريب الـ دهر حتى أعانه من أعانا
كلما أنبت الزمان قناة ركب المرء فى القناة سنانا

وليس من شك فى أن هذه الازدواجية يمكن ردها إلى نوع من الاضطراب أو التآرجح فى العلاقة التى كانت تقيمها ثقافات الشعوب عبر تاريخها بين الطبيعة والثقافة؛ فالطبيعة بالنسبة للشعوب القديمة

كانت لاتنفصل عن القوى الكونية وذلك بقدر ما كان الإنسان أو الكون المصغر (microcosm) نفسه جزءا لاينفصل ٠٠٠ عن الكون الكبير (macrocosm)، وهو الأمر الذى يفسر قيام علاقات اتصال بين دورة الكواكب ومصائر البشر ويبرر قيام العلوم الخفية القديمة من سحر وتنجيم فى كنف علم الفلك نفسه، كما يفسر قيام الأساطير القديمة فى عصور الوثنية، كما يفسر سيطرة فكرة القدر بصورة مأسوية على مصائر الناس وهو ما عكسته، فى أسلوب فنى رائع، المأساة اليونانية القديمة حينما أبرزت محاولة الإنسان الأولى فى تأكيد ذاته وتحقيق استقلاله عن القوى الخارجية التى تحاول أن تحد من حريته وإرادته .

إن مفهوم الحضارة وثيق الصلة بالطبيعة، وذلك بقدر ما تشكل الحضارة ضربا من سيطرة الإنسان على الطبيعة فى صورة تقنيات وتنظيمات ومؤسسات، وبقدر ما تتصل الحضارة بكل ما يرفع مستوى معيشته ويؤكد رفاهيته عن طريق الارتقاء بالبناء والعمران، وكل ذلك يتطلب اصطناع العلم والتقنية والتخطيط أو «الهندسة الاجتماعية». ولقد ربط المفكر الألماني «هردر» (Herder) - فعلا - بين الطبيعة والحضارة، الحضارة كمفهوم عقلى أو علمى لالعلاقة له بالإطار الاجتماعى، على أساس أن الثقافة هى، فى الفكر الألماني، نتاج الروح (Geist). ولعل هذا الفصل يطابق ما نجده عند رائد المثالية الألمانية «هيجل» من تمييز بين الروح والعرف أو قوله باغتراب «الفكرة» فى الشكلية، وما نلاحظه عند «شبنجلر» من

تفرقة بين الثقافة كصيرورة وبين الحضارة كتعين وتشكل ينبىء بالانحدار والزوال. ويذهب المؤرخ الألماني «نوربرت إلياس» إلى أن مصطلح الحضارة (courtesy) الذى دخل ألمانيا عن طريق التأثير الفرنسى (courtoisie) أو الانجليزى وعن طريق الطبقة الحاكمة والبلاط الملكى لم يلق قبولا، خلال القرن الثامن عشر، لدى المثقفين الوطنيين الذين روجوا لمفهوم الثقافة (Kultur) إلى درجة أن هذا المصطلح أصبح فى كتابات الأنثروبولوجيين مفهوما شموليا بالغ الاتساع يكاد يتراوح بين أبسط الأدوات وبين أرقى المذاهب الفكرية أو الفنية. إلا أن مفهوم الثقافة، وإن ظل بعامة مرتبطا فى الفكر الغربى بأنماط السلوك الاجتماعى أو بالتقاليد الاجتماعية المتوارثة، غالبا ما يربطه الدارسون الغربيون، حينما يخص الأمر الشعوب التى لم تحظ بقدر كاف من التقدم المادى، بنماذج أو بأنماط من التكوينات الطبيعية أو البيولوجية الصرف وكأن ثقافات هذه الشعوب أنساق مغلقة لاتعرف التطور الذاتى أو التاريخى وكأنها لاتتغير إلا تحت تأثير الحضارة الغربية المهيمنة .

مهما يكن من أمر، فإن مصطلح الحضارة والثقافة فى الفكر الغربى حديثان نسبيا، فهما لم يشيعا إلا بدءا من القرن الثامن عشر بالنسبة لمصطلح الحضارة (civilization) ومن القرن التاسع عشر بالنسبة لمصطلح الثقافة وذلك تحت تأثير المدرسة الرومانسية الألمانية. ونلاحظ أن مصطلح العمران الخلدونى ظهر خلال القرن الرابع عشر الميلادى، إلا أن أعمال بن خلدون لم تعرف، على سبيل

المثال، في فرنسا إلا من خلال ترجمة «سلان» (Slane) التي ظهرت بين ١٨٦٢ و١٨٦٨ .

ويبدو أن كلمتي حضارة وثقافة لم تتبلورا كمفهومين علميين إلا بفضل تطور العلوم الإنسانية، كما لم تستخدم بصيغة الجمع أو التعدد، كما يقول «بروديل» إلا بعد عام ١٨٥٠، وهو ما يعنى التحول من مفهوم الحضارة المثلى أى الغربية إلى مفهوم الحضارات والثقافات، وهو مفهوم لا يبرز إلا بالانفتاح على الشعوب الأخرى وزيادة حركة السفر والرحلات، ولعلنا نعلم أن أدب الرحلات هو المجال الرئيسى الذى نشأ فى كنفه علم الأجناس الذى شاع فيما بعد تحت مسمى علم «الأنثروبولوجيا» بكل فروعها المعروفة من فيزيائية واجتماعية وثقافية .

وبالرغم من بروز مفهوم الحضارات خلال القرن التاسع عشر، فإننا نلاحظ أى اتفاق بين المؤرخين على تحديد معنى المصطلح، فكانت مثل «جيزو» (Guzot) يفهم الحضارة فى دراسته «تاريخ الحضارة فى أوروبا» و «تاريخ الحضارة فى فرنسا» (١٨٢٩-١٨٣٢) بمعنى التقدم الاجتماعى والعقلى، وهو المعنى الذى برز عند «كوثورسيه» وغيره عن كتاب عصر التنوير السابق، إلا أن «جيزو» لا يعنى بإيران التطور أو التقدم «العقلانى» وإنما يسعى إلى اكتشاف نوع من التوافق بين السلطة السياسية وحركة الحرية، ويعتقد أن الحضارة هى، فى جوهرها، تحقيق لهذا الاتساق أو التوازن بين السلطة والحرية. أما «جاكوب برخاردت»

(J.Burckhardt) فى دراسته عن «ثقافة عصر النهضة فى إيطاليا» (١٨٦٠) فإنه يبنى تصويره للحضارة على «ثالوث» يربط بطريقة عضوية بين الدين والدولة والثقافة، وإن كان اهتمامه ينصب ، فى الواقع، على إبراز القيم الفنية للنهضة الإيطالية خلال القرنين الخامس عشر والسادس عشر على حساب دراسة السياق المادى والاجتماعى .

ويقوم تفسير «أوسفالد شبنلجر» (O.Spengler) صاحب كتاب «انحدار الغرب» الشهير، للتاريخ على محاولة إدراك القانون الخفى أو «القدر» الذى يهيمن على سيرورته ويقوده من مراحل التضخوع الثقافى إلى مراحل الحضارة أو المدنية التى تتجمد فيها الثقافة وتبدأ فى التدهور والانحدار. وهو يفهم السيرورة التاريخية على أنها حركة بيولوجية تخضع للميلاد والنمو والازدهار ثم الشيخوخة والفناء. من ثم، يرى أن كل ثقافات العالم، التى يفرد لها دراسات مطولة، تنمو وتتألق وتتبلور وفقا لقوانين خاصة بها ووفقا عليها، ثم تتحول إلى حضارة أو مدنية فتأخذ فى التقوقع والتقلص والأفول .

ويبلور «شبنلجر» (١٨٨٠-١٩٣٦) فى سبيل فهم الحركة الداخلية للتاريخ بعض المفاهيم التى يراها أساسية مثل مفهوم «التمائل» الذى يحكم الأشكال الحية على عكس «القانون الكمى» أو الرياضى الذى يحكم حركة الطبيعة وأشكالها «الميتة». ويقصد «شبنلجر» بالتمائل ليس مجرد التشابه الظاهرى الذى يجده بعض المؤرخين بين شخصيات مثل المسيح وبوذا أو بين نابليون وبيوليس قيصر

والاسكندر الاكبر أو بين مدن مثل فلورنسا وأثينا، وإنما التشابه العضوى الذى يقوم على منطق حركة التاريخ، وهو ما لا يتم إلا باستخلاص نوع من «مورفولوجيا» التاريخ العالمى أو «مورفولوجيا» العالم - التاريخ» ، شريطة أن يكون فهم هذا التاريخ مرتبطا بسيرورته الحية، وليس بما ظهر منه من أشكال مستقرة وثابتة. وهنا يميز الكاتب بين مفهوم «العدد الرياضى» أو الحسابى، الذى يتلأم مع دراسة الطبيعة فى صورها «الآلية» ، وبين المفهوم الذى يؤمن به لدراسة التاريخ البشرى، وهو «العدد الكرنولوجى» أو الزمنى .

من ثم، لاتعنى دراسة التاريخ تصنيف الأحداث السياسية أو الروحية الظاهرة ولا أسباب هذه الأحداث وأثارها العلمية الملموسة وفقا للحقب التاريخية المتعارف عليها، وإنما الكشف عن الدلالة العميقة الكامنة وراء ظهور هذه الأحداث عبر عصور التاريخ المختلفة؛ وكذلك صياغة اللغة التعبيرية العامة التى يمكن أن تربط بطريقة عضوية بين جميع الأشكال الثقافية المميزة لشعب من الشعوب والدالة على روحه (volkgeist) سواء أكانت أحداثا سياسية أو تصورات عقلية ونفسية وروحية أو أشكالا فنية. وهو ما يعنى أن لكل عصر روحه التاريخية المميزة له والمشكلة لعبقريته الخاصة، وأن الفيلسوف الحقيقى هو الذى فهم عصره وعبر عنه فى كتاباته بطريقة عضوية متلاحمة بالغة العمق والتماسك .

أما «أرنولد توينبى» (A. Toynbee) (١٨٨٩ - ١٩٧٥) فلا يقيم حدا فاصلا بين مفهومى الثقافة والحضارة وتشير لفظة

الحضارة لديه، فى الأغلب ، إلى الحركة والرحلة وإلى الكلية التى لا تتجزأ لا إلى الظروف الموضوعية أو الغاية وما قد نسميه نهاية المطاف. من ثم فالحركة هى التى تبعث الحياة فى حضارات الشعوب وثقافتها وانعدامها أو توقفها هو الذى يحكم عليها بالانحدار والزوال. ويمكن رد العوالم الحضارية ، فى نظر «توينبى» إلى ثلاثة رئيسية :

أ- عامل التحدى الذى يسمح بقهر ظروف البيئة الجغرافية وعقباتها الطبيعية، بل إن هذه العقبات نفسها تعد أكبر حافز نفسى يدفع الشعوب إلى التغلب عليها وبناء الحضارة .

ب- يعد الدافع الدينى أيضا، فى نظره، أهم من نقل التقنية والابتكارات الآلية بالنسبة لحركة الشعوب وتقدمها.

ج- يعتقد «توينبى» أن الانتقال من الثقافات البدائية إلى الحضارة لا يتم عن طريق التطور البطىء، وإنما عن طريق التحول (mutation).

وإذا كان «توينبى» قد اهتم كثيرا بإبراز العوامل الثقافية والروحية فى تطور الحضارات، إلا أنه أهمل تحليل دور التقنية والعوامل الاقتصادية والاجتماعية فى تفسير حركة التاريخ. بل إنه يذهب إلى حد الاعتقاد بخرافة فكرة التقدم ولا يعتد إلا بعامل «الطبيعة الروحية» التى تهيم، فى نظره على مصير البشرية .
مدرسة العوليات الفرنسية ومفاهيم «التاريخ الجديد».

ربما يسأل متسائل عن سبب اختيار هذا المثال؛ وفى الواقع إذا

كنت اخترت «مدرسة الحوايات الفرنسية» (les Annales) نموذجاً فذلك مرده إلى أن مجموعة المؤرخين الذين تضافروا على تكوينها منذ عام ١٩٤٦- وعلى رأسهم «لوسيان فيفر» و«مارك بلوك» - قد لعبوا دوراً مهماً ورئيسياً في تحويل التاريخ من منهج يقوم في معظمه على سرد الأحداث وتركيز الاهتمام على الطبقات الحاكمة والمؤسسات القوقية، وذلك لسبب بسيط هو ارتباط أوائل المؤرخين المحدثين بالسلطة وتنظيم الأرشيفات والوثائق الخاصة بالدولة، إلى منهجية متعددة ومفتوحة على العلوم الإنسانية والاجتماعية الصاعدة، وبوجه خاص علم الاقتصاد والاجتماع والسكان في البداية ثم بقية العلوم، كما سوف نرى .

لقد تطورت ونمت «مدرسة الحوايات» في ظل القسم السادس - الخاص بالعلوم التاريخية - من «المدرسة العلمية للدراسات العليا» (E.P.H.E) بجانب جامعة السربون عام ١٩٤٦، وذلك بهدف تأسيس فرع لبحوث التاريخ الاجتماعي يقوم على نظام «السمنار» (قاعة البحث) الذي ابتكره الباحثون الألمان. ولقد كان لنشأة هذا القسم دور كبير في تطوير الدراسات التاريخية من دراسات فردية ضيقة إلى دراسات عملية تقوم على البحث والمناقشة وترباط المناهج الاجتماعية والإنسانية» ولقد لعب «فرناند بروديل» الدور الأساسي في إنشاء هذا القسم بعد وفاة «لوسيان فيفر» ومقتل «مارك بلوك» عام ١٩٤١ .

ولعل أهم عمل تاريخي لبروديل هو رسالته للحصول على

الدكتورة وعنوانها «البحر المتوسط وعالم البحر المتوسط في عصر فيليب الثاني» حيث يبرز دور القوى الثابتة والدائمة، وهي عادة الأطر والاحتميات البيئية والجغرافية، ودور العوامل البشرية المتفاعلة معها في تحريك التاريخ، وتعتمد هذه الدراسة على بلورة مفاهيم جديدة مثل «التاريخ الطويل المدى» أو الثابت الذي يركز على تحليل وكشف البنى الاقتصادية والجغرافية والاجتماعية التي لا تتطابق بالضرورة مع التقسيمات المعروفة من عصور وقرون وحقب التي كانت تخضع في تحقيقاتها السابقة لمعايير الأحداث السياسية وتتابع النظم الحاكمة.

واقدر كان لهذه الدفعة، التي شكلتها دراسات «لوسيان فيفر» و«مارك بلوك» من قبل عن المعتقدات والبنى العقلية وأسس المجتمع الريفي والاقطاعي ودراسات «بروديل» ومنها أيضا «هوية فرنسا» التي تقوم على ترابط دينامي عميق بين المكان (البعد الجغرافي) والزمان (البعد التاريخي) - الأمر الذي يذكرنا بدراسات جمال حمدان عن عبقرية المكان - ودراساته القيمة التي ترجمها إلى العربية الدكتور ماهر شفيق وعنوانها : الحضارة المادية والرأسمالية» دور كبير في بلورة الدراسات الحديثة التي عرفت تحت مسمى «التاريخ الجديد» على شاكلة «النقد الجديد» و«الرواية الجديدة» وغير ذلك من تيارات التجديد الثوري، ويعتمد المنهج الجديد على إبراز حركة البنى التاريخية العميقة والثابتة ودراسة الحشود والجماعات والطبقات وليس الأفراد، والاهتمام بالوقائع المادية من

ملبس ومسكن وطرق للمعيشة وكل ما يتصل بالحياة اليومية، وبالأنماط العقلية والتصورية من اعتقادات وعادات وتقاليـد خاصة بالموت والميلاد والأعياد والاحتفالات. ومن هنا جاء قيام هذه الدراسات التاريخية على الإفادة من علوم الاجتماع والاثنوجرافيا أو الأنثربولوجيا الحديثة والاقتصاد وعلم النفس والتحليل النفسى .

وإذا كان «التاريخ الجديد» ، كما طورته مدرسة الحوليات الفرنسية، يعنى بهذه الجوانب الأنثربولوجية من حياة الشعوب (التي كان يعنى بها مؤرخونا السابقون على شاكلة ابن اياس وغيره ولا يهتم بها المحدثون)، فإن ذلك كان نوعا من رد الفعل ضد الدور الذى لعبه التاريخ الوضعى، وأيد القرن التاسع عشر، الذى مزج بين تاريخ المجتمعات وتاريخ المؤسسات وبين أشكال السلطة وحياة الطبقات السائدة والمهيمنة على الصعيد الاجتماعى؛ ولعل هذا الدور الوضعى للتاريخ قد بدأ خلال النصف الثانى من القرن السابع عشر حينما عملت الدولة على تأسيس الأرشيفات الحكومية وتجميع الوثائق الرسمية فى دور حفظ بطريقة منظمة، وحينما التفت الباحثون والمؤرخون ، وكثير منهم مرتبط أساسا بجهاز الدولة، إلى أهمية دراسة جهاز الحكومة وتنظيماتها المختلفة وإلى ضرورة ربط حياة الأفراد بالحياة العامة والرسمية نظرا لما يـنـاط بالدولة، فى فترة تطوير وتأسيس أليات الحكم الحديثة، من توجيه وإرشاد وبث مفاهيم التنوير الضرورية لإحداث عملية التقدم والنمو الاجتماعى على أساس من قيم أيديولوجية مقبولة كالحرية والعقلانية والعدالة، وكلها

مفاهيم نشأت ملازمة لقيام الدولة الليبرالية التي عرقها الغرب فى فترة قيام الرأسمالية التجارية، أى خلال القرن السادس عشر الذى تم فيه استغلال المعادن النفيسة المتدفقة من مناجم المكسيك وبيرو وبداية المد الكولونيالى وتكوين ما يشبه السوق العالمى، وفى فترة تطورها نحو الرأسمالية الصناعية؛ هذا بينما كان البحث التاريخى يتجه قديما نحو المصادر الدينية واللاهوتية وتحقيق المصادر القديمة وبوجه خاص اللاتينية واليونانية.

لقد كان أول مؤرخ فرنسى يعنى بحياة الشعب فى كفافه اليومى وبعاداته وتقاليده وأحلامه وأوهامه بعيدا عن وظيفة المؤسسات الحكومية والقوالب الرسمية للسياسة العامة هو المؤرخ الرومانسى «ميشليه» (michelet) خلال النصف الأول من القرن التاسع عشر، وكان قد سبقه إلى ذلك ، خلال القرن السابع عشر، «لوجراند دوسى» (Legrand d' Aussey) الذى ألف أول دراسة رائدة عن «تاريخ الغذاء» ولعلها أول دراسة انثربولوجية تاريخية فى فرنسا .

وإذا كان لابد من الإشارة إلى دور المؤسسين والرواد لهذا المفهوم العريض «التاريخ الجديد» ، فلنذكر دور «توكفيل» و«ماركس» و«سومبارت» و«ميزنجا» و«هنرى بيرين»، هذا بجانب الفلاسفة وعلماء الاجتماع من أمثال «هنرى بيير» و«دور كايم» و«ماكس فيبر» و«مارسيل موسى» و«جان موفريه» و«يانوفسكى» و«بيير فرانكاستل» وأخيرا «فرناند بروديل» وتلاميذه «لوروا لانورى» و«بيير شونو»، وأصف إليهم قطبى الانثربولوجيا : «جورج لوميزيل» رائد دراسة

الملاحم الهنود- أوروبية و«كلود ليفي - ستروس» مؤسس البنيوية في مجال العرابة ودراسة الأساطير الهنود - أمريكية.

ومن أهم المفاهيم التي بلورها «التاريخ الجديد» مفهوم «التاريخ المتعدد الجوانب» الذي لايعنى بالربط التعسفي بين الأحداث أو تفسيرها بواسطة أحكام قيمية ومثالية مسبقة بقدر ما يعالج موضوعاته بطريقة شمولية انطلاقاً من مبدأ «الظاهرة الاجتماعية الكلية» التي بلورها «مارسيل موس»؛ ويمكن الإشارة في هذا الصدد إلى دراسة «ناتان واشتيل» عن «رؤية المهزومين»، وهي دراسة رائدة عن حركة أو ظاهرة «المثاقفة» (acculturation)، ودراسة «تودوروف» عن «فتح أمريكا-مسألة الآخر»، التي ترجمها إلى العربية بشير السباعي (سينا للنشر، ١٩٩٢) حيث يمزج كل منهما بين رؤية المؤرخ ورؤية الأنثربولوجي أو السيمولوجي وبين منظور الأنا (مبدأ التمرکز الغربي) والآخر (رؤية الشعوب المقهورة)؛ وإلى دراسة «تاريخ الموت في الغرب» «ميشيل فوفيل» .

أضف إلى ذلك أن «التاريخ الجديد» يعنى بدراسة قضايا ومشاكل تقوم على فكرة «الاختلاف» وليس «المشاكلة» أو التماثل الذي يطمس التناقضات ويذيب الفروق الدالة والمعبرة، وهذا ما نجده بوجه خاص في دراسات الفلاسفة والمهتمين بتنظير تاريخ الفكر وليس مجرد تدوين النظريات وعرضها بطريقة مباشرة وسطحية، وأفضل مثال لهذا الاتجاه دراسة «ميشيل فوكو» عن «تاريخ الجنون في العصر الكلاسيكي» . كما يعنى «التاريخ الجديد بتحديد وبناء

المقولات التي يعالج في إطارها مادته التاريخية أو معطياته المتوفرة مثل تحديد أشكال من الزمان التاريخي والتحقيب كالحركة الطويلة (Trend) التي يتم على أساسها إدراك الاتجاه العام للأسعار أو تحديد البنية السكانية أو الاقتصادية أو التركيبات الطبقيّة والاجتماعية أو القوالب العقلية وأنماط التفكير والسلوك العامة؛ ويعنى كذلك بقياس وتحديد ظاهرة «التحولات» (mutations) البالغة الأهمية في إحداث «القطيعة المعرفية»، أى التغير الكيفي الذي تحدث من خلاله الطفرات الاجتماعية أو الثورات العلمية مثل التحول من الثبات إلى التطور في علوم الحياة أو الانتقال من النيوتينية إلى النسبية عند «اينشتاين» ، وتحديد أشكال أو أبعاد الزمن الأخرى في صورة حركة موسمية أو دورية يمكن ترجمتها إحصائيا مثل حركة الأسعار ونسبة الممارسات الدينية أو الشعائرية وحركة ارتفاعها وانخفاضها عبر التاريخ .

هذا بالإضافة إلى استخدام وسائل القياس الكمي أو الإحصائي خاصة إذا كانت المادة التاريخية تشمل بيانات عديدة، وهو الأمر الذي أتاح للمؤرخين دراسة الظواهر السكانية من المنظور التاريخي وإعداد دراسات خاصة بالتاريخ الاقتصادي («هاملتون» و«لابروس») لاكتفى فيها أصحابها بالوصف العشوائي أو السرد الجزئي وإنما يحنون ببناء المعطيات (المستقاة من التعدادات السكانية أو قوائم الضريبة أو وثائق الجرد والحصر المختلفة المتوفرة في أرشيفات الدولة أو الجيش أو المستشفيات وغير ذلك من المؤسسات كالشهر العقاري مثلا) في صورة جداول ورسوم بيانية

وكذلك بتطبيق بعض النماذج التي يتوصل إلى صياغتها علماء الاقتصاد (بكرة «جوجلير» الزراعية مثلا)؛ وعلى هذا النحو يتم الربط بين مختلف فروع العلوم الاجتماعية والإنسانية بصورة بناءة ومثمرة، وليست هذه التصورات قاصرة على التاريخ الاجتماعى والاقتصادى أو السكانى إذ هناك أعمال بالغة الأهمية تبتكر موضوعها ابتكارا مثل دراسة «تاريخ الكتاب» لليوغسلافى «الكسندر ستيتشفيتش» وكتاب «الجنود الثقافية للثورة الفرنسية» (مورنيه ثم روجيه شارتييه) والدراسات الخاصة بنشأة المظهر والخيال الوسيطى للمؤرخ «جاك لوجوف» (J. le Goff).

وليس من شك فى أن أهمية هذه الاتجاهات والمناهج التاريخية التي ترتبط بها يقر فى عدم اعتمادها على الأطر الجاهزة والقنوات المعدة مسبقا التي تفرضها الأغراض الأيديولوجية أو الأهداف المقبولة سلفا، كما أن أهميتها تعتمد على إبراز الرؤى المغايرة وليس المطابقة لعواطفنا وأمانينا اللاشعورية والتعويضية . ذلك أن المعرفة التاريخية والحضارية ليست فى مجرد تأكيد تصوراتنا أو تحسينها للآخرين وإنما فى تجديدها، بل وتغييرها، وإلا لن يكون هناك تجديد، أو بعبارة أدق «إنتاج معرفى» فالدراسة التاريخية والحضارية لم تعد صياغة «حقائق» موجودة فى طيات التاريخ وإنما فى كشف وإنتاج هذه الحقائق عن طريق بناء المناهج والمداخل وتعدد الرؤى الجديدة والمتغيرة وفقا لاهتمامات العصر واستثمارا لكل ضروب المعرفة المتاحة من غير خوف أو حواجز دفاع مصطنعة.

المنهج الرياضى فى العلوم الاجتماعية

د. ناجى بدر (★)

(*) قسم الاجتماع بآداب دمنهر، جامعة الاسكندرية.

مقدمة -

الرياضيات لغة العلم، وهى إحدى اللغات التى يملكها البشر، ولكن ربما كانت اللغة الوحيدة التى لاتتأثر بأى تحيزات تتبع من المضمون Contant الذى تستخدم فيه، وهذا ما جعلها لغة عالمية ومعنى ذلك أنه لامجال للتفسيرات والتأويلات التى قد تنطوى على تحيزات الباحث وانتماءاته المختلفة. وإذا كانت الرياضة هى علم دراسة البناءات structures- بغض النظر عن المحتوى - فإنه من الممكن- عن طريق استخدامها - الربط بين حقائق علمية ذات مستويات طبيعية مختلفة ولكن لها نفس البناء المنطقى. وبالتالي فالرياضيات مناسبة تماما كلغة العلوم كما وصفها «جاليليو».

وليس الاهتمام بالرياضيات مسألة حديثة أو معاصرة فقد شغلت دائما فكر العلماء والباحثين وقد أوضح «أوجست كونت» August cont فى كتابه دروس فى الفلسفة الوضعية cours de philosophie positive أن الرياضيات من الأدوات الأكثر فاعلية فى العقل الإنسانى التى يستطيع بها أن يحص قوانين الطبيعة الإنسانية ، وقد اعتبر الرياضة القاعدة الأساسية التى تركز عليها كل العلوم الأخرى وتبنى عليها كل انجازاتها وتسترشد بمبادئها وقواعدها فى فهم وتحليل الظواهر والحقائق التى تهتم بدراستها هذه العلوم وقد رتب بعد ذلك مجموعة العلوم من منطلق البساطة والتعقيد وانتهى إلى أن علم الاجتماع هو أكثر العلوم تعقيدا وهو يرى أن معظم العلوم تعتمد على العلوم التى سبقتها فى

الترتيب الذى أوردته فى تصنيفه للعلوم، وعلى ذلك فهو يرى ان الرياضة هى أبسط العلوم على وجه العموم وسر بساطتها أنها لاتعتمد على غيرها من العلوم ولايحتاج الإنسان أن يستعين بأي علم آخر على فهمها، وفى نفس الوقت فإن العلوم الأخرى تعتمد على الرياضيات وتستعين بها^(١) .

ولقد اثارت القضايا المنهجية المتعلقة بالاعتماد على الاتجاه الكيفى والاتجاه الكمى فى الدراسة والتحليل فى العلوم الاجتماعية ، كثيرا من الجدل والنقاش بين المتخصصين والباحثين فى العلوم الاجتماعية وظهر فى تراث العلوم الاجتماعية المختلفة إسهامات ومحاولات من جانب بعض العلماء المهتمين بالنواحي المنهجية، يمكن تلخيصها فى مجموعتين :

الأولى: تؤيد الاعتماد على أحد الاتجاهين على حساب الآخر، فى محاولة لإبرازه والتأكيد على أهميته وجدواه .

الثانية : وترى أنه لاجال للتفرقة بين الاتجاهين أو الاعتماد على واحد منهما دون الآخر، واعتبروا أن التفرقة بينهما نوعا من الثنائية المصطنعة التى لا أساس منهجى لها .

ويعتمد أنصار الاتجاه الكيفى فى العلوم الاجتماعية على قضية هامة مؤداها : أن معظم مشكلات البحث والدراسة فى العلوم الاجتماعية تعد ذات طبيعة كيفية، بالإضافة إلى صعوبة استخدام

(١) نادر فوجانى : استخدام الأساليب الرياضية والاحصائية فى العلوم الإنسانية (مجلة عالم الفكر، المجلد الرابع، العدد الرابع ، الكويت ، ١٩٧٤) ص ١١ .

الرياضيات أو إجراء التطبيقات الرياضية، ويرجع ذلك إلى اختلاف مفهوم النظرية وصعوبة تعريف المتغيرات الأساسية وقياسها فى العلوم الاجتماعية عنها فى العلوم الطبيعية .

أم أنصار الاتجاه الكمي فى العلوم الاجتماعية، فقد انطلق تأييدهم لهذا الاتجاه من خلال نظراتهم للنتائج المذهلة التى توصلت إليها العلوم الطبيعية عن طريق استخدامها للأساليب الرياضية والاحصائية، تلك النتائج التى تميزت بالدقة والموضوعية.

وبناء على ذلك رأوا أن محاولة محاكاة هذه العلوم فى مناهجها قد تساعدهم على الارتقاء بالعلوم الاجتماعية ووضعها فى مصاف تلك العلوم، والابتعاد بها عن المعالجات الفلسفية التى سيطرت على العلوم الاجتماعية زمنا طويلا^(٢) .

إلا أن بعض علماء العلوم الاجتماعية قد حاول الجمع أو التوفيق بين كل من الاتجاهين ، وجاءت محاولاتهم من منطلق أن - علما بأن طبيعة مشكلات الدراسة فى العلوم الاجتماعية تعتبر ذات صفة كمية- المعطيات أو البيانات التى يسفر عنها أي بحث فى العلوم الاجتماعية تنقسم إلى : بيانات كمية ليصلح معها فى الدراسة والتحليل سوى الاتجاه الكيفي، وأخرى كمية لايجدى معها سوى أساليب وطرق الاتجاه الكمي. هذا بالإضافة إلى إمكانية تحويل البيانات الكيفية إلى بيانات كمية يمكن قياسها من خلال إحلال

(2) J.Keneny (er.al); Introduction to finit Mathematics (N.J.: Prentice Hall, 1965). P.54.

وحدات كمية بدلا منها، وعلى ذلك يمكن معالجتها كميًا، مع ضرورة الوضع في الاعتبار ردها مرة ثانية إلى أصلها الكيفي أو بمعنى أدق مضمونها الاجتماعي، مع وضع التحفظات اللازمة حتى لا يضيع هذا المضمون خلال الأرقام والمعادلات والصيغ الكمية .

إن العلماء يهدفون أساسا من خلال دراساتهم وبحوثهم المختلفة تدعيم أو تقويض النظريات القائمة، أو تكوين أو إبراز نظريات جديدة تساعد على فهم المجتمع وما يتضمنه من ظواهر . وإن كانت النظرية من حيث صياغتها بصفة عامة تتطوى على عدد من المفاهيم والمصطلحات ، فمن المعروف أن هناك مشكلة تتعلق بعدم اتفاق العلماء حول هذه المفاهيم والمصطلحات، وهذا ما جعلهم يستشعرون الحاجة إلى وجود لغة واحدة يمكن الاتفاق عليها . ومن هذا المنطلق حاول بعضهم معتمدا على الأساليب الرياضية المختلفة صياغة نظريات بهدف التخلص من نواحي اللبس والغموض وعدم الاتفاق الذي يكشف بعض النظريات في العلوم الاجتماعية .

★ الاتجاه الكيفي والاتجاه الكمي:

إن الغالبية العظمى من مشكلات البحث والتعميمات في العلوم الاجتماعية ذات طابع كيفي، ومن أمثلة التعميمات الكيفية أنه إذا زادت الظاهرة (أ) زادت الظاهرة (ب) وهذه التعميمات تستند إلى الخبرة الشائعة أو التجربة المألوفة كما أنها تستند إلى البحث والبيانات وكلها تشكل الأسس المبيريقية المألوفة للنظرية في العلوم الاجتماعية إلا أن هذه البيانات قد تكون ذات طابع عددي حتى وإن

كان قد تم التوصل إليها من بيانات كيفية⁽³⁾ .

وإذا طرحنا ذلك جانبا وقمنا بمحاولة تصميم نماذج للبحث وأعطينا أولوية للجوانب الرياضية على الجوانب الاجتماعية، فإن كل العمليات التي سوف تسوق أي نوع من أنواع القياس ستظل مبهمة ولا يمكن السيطرة عليها، بينما إذا استندنا إلى الشواهد والبيانات الكيفية- كما يحدث دائما- فإننا بذلك نكون قد أضغينا عليها قدراً من الدقة التي تفتقر إليها في الواقع. وهكذا تبدو الصعوبة التي تكتنف هذه العملية وكيف أنها تؤدي إلى اعتقاد خاطيء في التحكم والضبط الرياضي. ومثل هذه العملية في ذاتها تعتبر مصدرا للتهكم والسخرية طالما أنها تفضى- ولو ضمناً- إلى نوع من التكهّن العلمي.

وبذلك يمكننا أن نتصور المشكلة لو وضعنا في الحسبان قواعد الارتباط، أي أنه ينبغي أن تكون هذه القواعد عبارة عن مجموعات معروفة تمثل بعض الأهداف أو العناصر، التي يشار إليها في العلوم الاجتماعية على أنها المجموعات الطبيعية التي ترتبط بالبيئة المحيطة أو بإطار الاستدلال مع بعض المميزات أو الصفات المختارة التي لا يمكن الوقوف إزاءها موقفا محايدا.

وقد قدم كارلينجر Kerlinger شرحا لهذه المسألة جاء فيه :
ان البيئة المحيطة أو إطار الاستدلال يرتبط أشد الارتباط مع "U"

(3) James S.Coleman, Introduction to Mathamatical Sociology (Glencoe I 11: The Free Press, 1964) P.26.

إذا اتفقنا على أن "U" يشير إلى المعالجة بطريقة كلية أو موضوعية، وهى طريقة يجب أن تتضمن أي موضوعات نستطيع أن نتحدث عنها، ولذلك فنحن إذا انتقلنا إلى مستوى آخر من مستويات الطريقة الكلية لمعالجة الموضوع فسنجد أن المستوى الجديد لن يكون متضمنا لشكل الموضوعات فعلى سبيل المثال: عند الحديث عن الأفراد فإنه لا يجب أن نتحدث عن الطيور مثلا، لأن هذه السلوك يعتبر خروجاً على مستويات الطريقة الموضوعية للمعالجة، وهذه المشكلة المتمثلة فى إطار الاستدلال أو فى المعالجة الكلية للموضوع يحفز فكرنا فى الحديث عن الأهداف والعلاقات التى تتضمنها نون أي شىء آخر⁽¹⁾.

★ التأثير الأيديولوجى للاختيار بين الاتجاه الكيفى والكمى :

تعكس عملية اختيار الباحث لأى من الاتجاهين الكيفى أو الكمى فى التحليل الكثير من اهتمامات الباحث، وعموماً يمكن القول إن التحليل الكمى يعتبر ذا صفات خاصة فى العلوم الاجتماعية بالولايات المتحدة الأمريكية إذا ما قورن بغيره فى البلدان الأخرى، حيث إنه يعتمد على الملاحظة والتجريب وأيديولوجية التقدم، كذلك يرتبط أسلوب التحليل الكيفى بالموقف أو المكانة السياسية. لذلك فإن اختيار الباحث لأسلوب البحث يرتبط بالموقف السياسى والنظام الاجتماعى والحالة الراهنة للدولة، بالإضافة إلى ذلك فإن اختيار

(1) Fred N. Kerlinger: Foundations . of Behavioral Research Educational and Psychological (New York: idolt 1964). p .76 .

الباحث بين الاتجاه الكيفي أو الكمي ينجم عن سلسلة عوامل لعل أهم ما يوضع منها فى الاعتبار هو العلاقات الداخلية بين المتغيرات وفى نفس الوقت النظر إليها على أنها عوامل منفصلة من الناحية التحليلية فقط، بينما تتربط جميعها فى إطار الموقف السياسى والأيدىولوجى للباحث نفسه والبيئة التى يعيش فى نطاقها وما إذا كان يتفق فى رأى مع النظام الاجتماعى الذى يعيش فى ظله .

وقد برز استخدام الاتجاه الكيفى من خلال عملية (الحدس البديهي) وتفهم الدور الذى قام به بعض العلماء فى الصراع الأيدىولوجى لفترة ما قبل الحرب العالمية الثانية، وربما ظهر غيرهم من العلماء مرة أخرى فى تاريخ المجتمعات الإنسانية، لكن دون توفر عنصر الهيمنة الذى كان يتمتع به العلماء السابقون وهذا يوضح لنا مدى الارتباط الوثيق بين أسلوب البحث والموقف السياسى^(١) .

سمات الأسلوب الثانى (الكمى)	سمات الأسلوب الأول (الكيفى)
١- التأكيد على الطابع الكمي للمتغيرات التى تكون مشكلة البحث .	١- التأكيد على الطابع الكيفى للمتغيرات التى تكون مشكلة البحث وذلك بمقارنتها بمجموعة أخرى من الظواهر تفترض على نحو قيمى .
٢- الاهتمام ومحاولة تحليل عناصر مشكلة البحث .	٢- تركيب عناصر موضوع البحث .
٣- الاهتمام بالبعد المكانى والزمنى للعناصر التى توجد داخل	٣- الاهتمام بالبعد الزمنى لعناصر موضوع البحث .

(1) Louis Athusser . Pour Marx (Paris: Maspere 1065) p. 222 .

مجموعة الظواهر موضوع البحث
(بمعنى وضع كل عنصر من
عناصره المكونة للمجموعة في
إطاره المكاني والزمني) .

٤- تجسيد العلاقات الاجتماعية (أي
تحويلها إلى مسائل مادية)،
والبحث عن القوانين الطبيعية
التي تحكم مشكلة البحث .

٥- إغفال تاريخ موضوع البحث بما
يعنى إمكانية قلب وعكس
التسلسل التاريخي لعناصر
موضوع البحث .

٦- تجنب إصدار أحكام قيمة .

٧- التركيز على مجموعة الظواهر
التي تشكل موضوع البحث .

٨- الاعتماد على المنهج التجريبي
كطريقة نموذجية للتحقق من
صدق المعرفة .

٩- تخطيط مصادر مجموعة ظواهر
البحث ومحاولة وضع سياسة
للتقليل من التناقضات الواقعة
بينها (التحكم والضبط
التجريبي) .

١٠- التأكيد على منهجية الوقائع التي
أمكن جمعها .

١١- تمييز موضوع البحث بالذات
والاستمرارية^(١) .

٤- إنسانية العلاقات الاجتماعية
والبحث عن القوانين الاجتماعية
التي تحدد التحول من مجموعة
الظواهر إلى مجموعة أخرى .

٥- الاهتمام بتاريخ الظواهر أو
عناصر البحث بما يعنى عدم
إمكانية عكس التسلسل والتغير
التاريخي لعناصر موضوع
البحث .

٦- إمكانية إصدار أحكام قيمة .

٧- التركيز على القوى التي تحدد
عناصر موضوع البحث .

٨- الملائمة والتحقق والامبيريقى
كطريقة نموذجية للتحقق من
صدق المعرفة .

٩- الأخذ بسياسة تعميق التناقضات
في مجموعة الظواهر موضوع
البحث .

١٠- التأكيد على منهجية التغير
وأحداث الثورات .

١١- تمييز موضوع البحث بالتغير .

(1) Pablo Ganzalez Casanova, Translated by : Susan Bethe Kapilian, Geozanne Weller: The Fallacy of Social Science Research, A Critical Examination New Qualitative Model, Foreword by Adam Schoff. pergaman press (1981). pp.9-10.

والخلاصة أن الاتجاه الكمي فى العلوم الاجتماعية يعتمد على إمكانية الفهم والتحكم فى التغيرات داخل المجتمعات الرأسمالية والاشتراكية، الدليل على ذلك أنه عندما يبدأ الباحث العمل من خلال مجتمع رأسمالى فى محاولة من جانبه لفهم هذا النظام وفهم متغيراته دون اللجوء لمحاولة تغييره، نجد أنه يتجه نحو التحليل الكمي، مثله فى ذلك مثل العامل الفنى الذى يعمل داخل نطاق المجتمع الاشتراكي، فهو يحاول أن يتكيف مع البيئة المحيطة به ليحصل على الألفة التى تمكنه من إدراك متغيرات النظام. إن الانتقال من نظام إلى آخر يفترض الانتقال من قاعدة إلى أخرى، إذا فإن التغيرات الكمية فى إحدى هذه القواعد لابد أن تعتمد على مدى التغير فى القاعدة الأخرى والتغيرات الكمية لابد أن توجد فى القاعدة الأخرى التى يتم تغيير بعض بنودها، والتى قد تتضمن مبحث القيم (الأخلاق - الدين - الجمال) داخل القاعدة الجديدة⁽¹⁾.

★ دعائم الاتجاه الكمي :

يعتبر الاحصاء من أهم دعائم الاتجاه الكمي فى العلوم الاجتماعية فالاحصاء هو العلم الذى يبحث فى أساليب جميع البيانات ووسائل تحليل البيانات بهدف الوصول إلى المعرفة المبنية على أسس رقمية عن المجتمعات محل الدراسة. ويرسّى الاحصاء الرياضى دعائمه على أسس بسيطة يمكن للعقل البشرى أن يقبلها دون جدال ويعتبر الأسلوب الاحصائي خط الامان فى أي دراسة

(1) Ibid, 36 .

لمواجهة مشكلة معينة حالية أو متوقعة من أجل حلها^(١) .

وعلى ذلك فإن علم الاحصاء ليس علما مستقلا بذاته وإنما يعتبر الاحصاء أداة تخدم العلوم الأخرى فى البحث والاستقصاء والتعبير عن النتائج بلغة مبسطة مختصرة ومركزة تتميز بالدقة وسهولة العرض، بحيث يكون من الميسور نقلها للغير فى سرعة ووضوح وتحديد، كالاتجاه إلى الأرقام والتعبير الكمي والاستعانة بالرموز والرسوم البيانية والجداول والمعادلات الرياضية. فالاحصاء إذن لغة أخرى أو طريقة من طرق الاختزال وتسهيل التسجيل وعرض ما وصلت إليه العلوم والتجارب من نتائج، ويساعد وضع النتائج فى صورة إحصائية على متابعة البحث فيها إذ إن لغة الاحصاء تساعد على حصر مجال التفكير، وتسهيل عمل المقارنات وتجعل من الميسور إخضاع هذه النتائج لخطوات أخرى من التحليل الإحصائي الذى يؤدي إلى إبراز العوامل الرئيسية فيها، ويتميز التحليل الإحصائي بصفة التنظيم والترتيب التى تجعل من الميسور دائما الرجوع إلى التفاصيل والبيانات الأولية التى اتخذت منها الرموز النهائية والتى تكون غالبا ذات معان جزلة مبينة على تجمع سلسلة من الخطوات الإحصائية^(٢) .

★ الاحصاء فى العلوم الاجتماعية :

ليس العلم مجموعة من الحقائق والنظريات فحسب، بل هو فى

(١) منبى دسوقي مصطفى : مبادئ فى علم الاحصاء (دار النهضة العربية، القاهرة، ١٩٦٨) ص ٩ .

(٢) محمد خليفة بركات: الاختبارات والمقاييس العقلية (دار مصر للطباعة، القاهرة، ١٩٥٤) ص ١٠-١١ .

الواقع نظام محكم الحلقات، مترابط الوحدات يحدد علاقة الفرد بمحتويات العالم الذى يعيش فيه، ويفسر الظواهر الطبيعية التى تمسه من قريب أو بعيد، وكلما زاد التقدم العلمى كلما ساعد هذا بدوره على اكتشاف حقائق أخرى جديدة. فالتقدم الفكرى هدف أساسى من أهداف البحث العلمى، كما أنه نتيجة حتمية من نتائجه ، إلا أنه لا يحدث دائما أن يهدف الباحث إلى اكتشاف حقائق جديدة بل قد يرمى فى كثير من الأحيان إلى تنظيم الحقائق والنظريات التى سبق اكتشافها ، مما يضطره إلى فحص الصفات والمميزات للحقائق والبيانات العلمية المختلفة وتوضيح العلاقات القائمة بينها. والباحث فى كل هذا يستخدم الوسائل والأسس الاحصائية التى تمده بالوصف الموضوعى الدقيق. وتوضح له العلاقة التى تتطلبها بحوثه توضيحا بعيدا عن العوامل الشخصية. فالباحث الذى يعتمد على مجرد الملاحظة الشخصية غالبا ما تقوده هذه الملاحظة - دون قصد- إلى نتائج لا تنطبق على الوقائع العلمية انطباقا تاما. ومن هنا كان الاحصاء هو عصا الباحث التى تقوده إلى الأسلوب الصحيح والنتائج السليمة. فالباحث محتاج إلى تصميم بحثه على أساس يمكنه من أن يستخلص النتائج التى يهدف إليها وتحقيق الفروض التى يبدأ بها. وأن يستبعد بقدر استطاعته جميع العوامل غير المرغوب فيها والتى قد تؤثر فى النتائج وفى سير البحث ثم فى حساب المعاملات والنتائج الجزئية التى يحتاج إليها فى الخطوات المتتابعة للبحث كالمتوسطات ومقاييس التشتت ومعاملات الارتباط

ومقاييس الدلالة وطريقة التفكير التى يلجأ إليها الإحصائيون عادة تتحصر فى افتراض أن الباحث قد كرر تجربته على أشخاص آخرين عددا لانهاثيا - من المرات - فى نفس الظروف التى أجرى فيها تجربته الأولى. فمن الطبيعى أنه سيحصل من هذه التجارب على فروق مختلفة بين متوسط درجات المجموعتين ونستطيع أن نتخيل أن هذا الفرق سيتذبذب فى تلك التجارب العديدة حول قيمة ثابتة يمكن أن نطلق عليها الفرق الحقيقى ونستطيع أن نتخيل اتساع التجربة اتساعا كبيرا، فيصبح التطبيق لا على عينة بل على المجتمع الأسمى الذى اختيرت منه العينتان اللتان أجرى عليهما البحث الأول، والمشكلة فى هذا المثال تصبح مشكلة من مشاكل التفكير الاستقرائى الذى ينتقل من الجزئيات إلى الكلّيات، أى من نتائج تجربة صغيرة إلى نتائج متوقعة لتجربة أعم بدرجة لا يمكن تطبيقها عملياً

★ المزايا والفوائد التى يجنيها الباحث من الطرق الإحصائية :

١- تساعد الباحث على إعطاء أوصاف على جانب كبير من الدقة العلمية ودقة الوصف تحتاج دائما إلى اختبار مدى ثبات النتائج التى حصل عليها الباحث فمجرد الوصول إلى النتائج دون التحقق من ثباتها لا يكفي عادة كأساس يعتمد عليه فى تغيير الحقائق وتحقيق الفروض .

٢- يساعد الإحصاء على تلخيص النتائج فى شكل ملائم مفهوم

(١) السيد خيرى : الإحصاء فى البحوث النفسية والتربوية والاجتماعية (مطبعة دار التأليف، القاهرة ، ١٩٨٣) ص ٣١ .

لأن البيانات التي يجمعها الباحث لاتعطى صورة واضحة إلا إذا تم تلخيصها فى معامل، أو رقم أو شكل توضيحى كالرسوم البيانية .

٣- يساعد الباحث على استخلاص النتائج العامة من النتائج الجزئية فمثل هذه النتائج لايمكن استخلاصها إلا تبعا لقواعد احصائية، كما يستطيع الباحث أن يحدد درجة احتمال صحة التعميم الذى يصل إليه .

٤- يمكن الباحث من التنبؤ بالنتائج التي يحتمل أن يحصل عليها فى ظروف خاصة .

٥- فى كثير من البحوث يهدف الباحث إلى تحديد أثرعامل خاص دون غيره من العوامل مما لايتسنى تحقيقه عمليا وهنا يستطيع الباحث أن يلجأ إلى الاحصاء الذى يعاونه على فصل العامل الخاص عن العوامل المحتملة وتحديد أثره على حدة كما يعينه الاحصاء على التخلص من أثر العوامل الأخرى التى لايتستطيع تفاديها فى بحوثه والتى تؤثر دائما فى نتائج كل بحث كعوامل الصدفة واختيار العينات .

٦- وقبل ذلك فإن الاحصاء يهدى الباحث إلى تنظيم خطوات بحثه وهو يحتاج إليها فى مرحلة تصميم البحث^(١) .

الرياضيات والنظرية فى العلوم الاجتماعية :

إذا كانت النظرية فى جوهرها نسق من القضايا المجردة. كل

(١) المرجع السابق، ٣٤.

قضية من هذه القضايا تصور الصيغة العلمية للعلاقة بين الحدود التى تتضمنها القضية. وكل من هذه الحدود يشير إلى نوع عام من المعطيات، أى يشير إلى العام كما هو متميز عن الخاص. ويتبع هذا أن جميع القضايا التى تتضمنها النظرية هى التعميمات فى ذاتها أى أنها تعدد بعض الصفات المشتركة وبعض الانتظامات فى الظاهرة التى تتناولها النظرية^(١) .

وتشارك الرياضيات النظرية فى بعض خصائصها ، فهى تتميز بالتجريد وبالتحديد صيغ عامة للعلاقات بين الحدود المكونة للنسق الرياضى كما أن هذه الحدود بطبيعتها عامة أكثر منها خاصة، إلا أن هناك سمة تنفرد بها الرياضيات وتزودها بخصائص تفتقدها النظرية، وهى أن الحدود المكونة لعناصر النسق الرياضى عبارة عن متغيرات، وبالتالي تعرف القضايا التى تتكون من هذه الحدود بأنها صيغ Formuals أو نوال افتراضية Propositional Functions وبالطبع هذه الصيغ أو النوال ليس لها سند امبيريقى على الإطلاق، ولكن طالما تحل قيما معينة محل المتغيرات المكونة للصيغة أو الدالة فإن القضية تجسد بحيث يمكن اختبارها امبيريقيا. ولذا كان هذا النوع من النوال من أكثر أنواع القضايا التى يمكن صياغتها عن الظاهرة الاجتماعية إذ يجمع نسقها بين المرونة والدقة، بحيث يصبح من الممكن القول بأنه لا يدانيه أى نسق نظرى آخر ،

(١) محمد عاطف غيث وآخرون، قاموس علم الاجتماع، الهيئة المصرية العامة، للكتاب ، الاسكندرية ، ١٩٧٩ .

فبواسطته يمكن أن نعبر عن العلاقات المعقدة والدقيقة بين الوقائع والأفكار مع تجذب الرموز اللفظية تماما^(١) .

والحقيقة أن الصفة التجريدية التي تجمع بين كل من الرياضيات والنظرية وكذلك التماسك المنطقي لعناصر كل منهما قد أوجد رابطة ضرورية بينهما بحيث اعتبرت الرياضة أنسب لغة للنظرية سواء في مجال العلوم الطبيعية. أو العلوم الاجتماعية ، وقد أبرز ناغل Nagel هذه الرابطة بتأكيدده على أنه إذا كان للنظرية في العلوم الاجتماعية أن تتخطى الاختلافات الثقافية فإنها يجب أن تكون على درجة عالية من التجريد وأن تبتعد مفهوماتها ظاهريا عن السمات المألوفة والواضحة في أى مجتمع وأن تتضمن نتائجها استخداما لأساليب الحساب الرمزي^(٢).

محاولات لصياغة نظريات تعتمد على الرياضيات :

حاول فيري Firey تصنيف تلك المحاولات إلى عدة مجموعات

هي :

أ - التصنيفات classifications

ب- المعادلات الامبريقية Emperical Equations

ج - النماذج المنطقية الرمزية Logistic Models

١- ناهد صالح، الرياضيات والنظرية السوسيولوجية ، عالم الفكر، المجلد الرابع، العدد الرابع، الكويت ، ١٩٧٤ ، ص ٢٥ .

2) Sorokin, P. "Fadsand Foibles in Modern Sociolo—gy" Henry Regery company, chicage 1955, p.174.

د- النماذج التصادفية. Stochastic Models.

١- ستيورات دود ونظرية الموقف :

يعد ستيورات دود Dodd أحد ممثلى الوضعية المحدثّة New Postivism ولم يعد هذا المصطلح يستخدم الآن إلا فى القليل النادر، حيث يشباع بدلا منه مصطلح علم الاجتماع الرياضى وقد أجرى دود عدة بحوث فى الشرق الأوسط حيث طور المبادئ والأسس التى ارتكز عليها فى مؤلفه الهام أبعاد المجتمع Dimensions of Society ١٩٤٢ والهدف من الأبعاد كما يقول «دود» هو إقامة نظرية كمية للمجتمع أطلق عليها «نظرية ق» - S-theory أو نظرية الموقف، حيث يشير الرمز ق(S) إلى الموقف Situation وهو يذهب إلى أنه من الممكن تحليل المواقف وتصنيفها إلى أربع فئات من المكونات هى :

الزمان Time والمكان Space وهما فئتان شائعتان فى كل العلوم، والسكان وهم يمثلون فئة مشتركة بين كل الظواهر الاجتماعية وأخيرا فئة خصائص السكان وبيئائهم - ويقول إن هذا التصنيف شامل، لأنه يستطيع أن يستوعب أى شىء آخر ولكن يحدد دود هذه المكونات الأربعة الأساسية ويرمز اليها بالرموز التالية : ت (الزمان) ، ل (المكان) ، ب (السكان) ، ي (الوشر) والوشر بحكم طبيعته يستطيع أن يشير إلى أى شىء آخر ، مثال ذلك : الفلاسفة

البوذية وضوءاء المدينة ، والرغبة الإنسانية^(١).

أما الخطوة الثانية فى نظريته فهى التعبير عن كل موقف اجتماعى بمعادلة كمية تتألف من أربعة رموز أساسية أو أربعة مكونات. فإذا حدث فى موقف ملموس ان انتفى وجود مكون أساسى أو صعب قياسه، فمن الممكن أن يشار إليه حينئذ بـ (صفى) ، بحيث تتبع بعد ذلك مبادئ الجبر المعروفة وبالتالي تمويل أى كمية أو مقدار إلى (١) . وفى الحالات الأخرى نستخدم الأساس ١، ٢، ٣ وكذلك الأوسين ١-، ٢- بحيث تبدو المعادلة على النحو التالى : ل = مواقف لاتتضمن مكانا، ل١ = مواقف تتضمن خطوطا، ل٢ = مواقف تتضمن منطقة، ل٣ = مواقف تتضمن حجما (بعد ثالث)، ت = لاتتضمن زمنا، ت١ = تتضمن الدوام، ت١ = تغير ، ت٢ = السرعة، ب = لا مكان، ب١ = جموع ، ب٢ = جماعات ، ب٣ = نوع من الأشياء ليكن جنبها، ب٣ = نسبة ذكاء الفرد، ب٣ = خصائص نوعيه، ب٣ + ٢ = خصائص مرتبطة. وعلى هذا النحو صاغ بود معادلاته الكمية ، فمثلا نجده يرمز للقوة الاجتماعية بالرمز ت-٢ ب ، لأنها تتضمن سلفا المكونات التالية : سرعة ، المكان، وسكان، وخاصية مميزة لكل قوة معينة. وهو يؤكد على أن هذا النمط من الصياغة قادر على تحويل الخصائص الكيفية على صيغ كمية. وقد نظر إلى هذه الخصائص باعتبارها تشكل^(١). ويقول : إنه من الممكن أن

(١) تيماشيف، نظرية علم الاجتماع ، طبيعتها وتطورها ، ترجمة محمود عودة وآخرين، دارالمعارف ، القاهرة ١٩٧٢، ص٢٠١.

نحول ببساطة هذه المعادلات الكمية إلى عدد رقمي، وذلك باستخدام أربعة أرقام تحمل أساس المعادلة الكمية.

ولتبسيط هذه الفكرة من وجهة نظره ضرب مثالا لذلك بأن استبدل - ٢ ب ٨ ، ١ ب ٩ ، فإن المعادلة الكمية للقوة الاجتماعية ستؤدي إلى ظهور العدد ٨٠١١، ويعتقد أن كل المواقف الاجتماعية التي يمكن أن نرمز إليها بنفس العدد، لا بد وأن تشترك في خصائص عامة^(١).

الخطوة الثالثة التي اتبعتها «بود» في صياغة نظريته تتمثل في تصميم «مصفوفة ارتباطية» والمصفوفة كلمة رياضية تستخدم للإشارة إلى ترتيب ارقام معينة في صفوف وأعمدة ويذهب «بود» إلى أن هذه الأداة (المصفوفة) هي أفضل وأكفا وسيلة لوصف الجماعة الإنسانية ودراستها، ففي داخل كل خلية (يلاحظ أن الخلية تتشكل بتقاطع الصف مع العمود) يمكن ملاحظة المدى الذي وصل إليه المؤشر (مثال ذلك الحالات التي نقيس فيها الاتجاهات أو السلبية نحو بعض الأفراد) ومن الممكن أن تستكمل المصفوفة على ثلاثة أو أربعة أو خمسة أبعاد وبذلك تتيح كل إمكانيات تحقيق عرض توضيحي في صورة تقليدية .

وعلى هذا يصوغ «بود» نظريته في المعادلة التالية :

$$S = (T, L, P, Ipp, IR)$$

١- المرجع السابق، ص ٢٠٦ .

ب- المعادلات الأمبيريقية :

تعتبر المعادلات الأمبيريقية مدخلا دراسياً يستعين بالرياضيات ويتميز عن غيره بإمكانية البرهنة على صحتها وخطئها ولعل المعادلة التي صاغها كل من Mckay و Show من دراستهما للعود إلى الإجمام مثلاً لهذا النوع من المعادلات، فقد تبين لهما من خلال هذه الدراسة التي أجريها في مدينة شيكاغو، وجود علاقة أمبيريقية بين معدل الجنوح في الحى « ونسبة الأحداث الجانحين به.

وقد برهنا على صفحة هذه العلاقة بحيث عبرا عنها بخط انحدار للمربعات الصغرى، وقد أخذ الصيغة التالية : $s = 22.92 + 886v$ ، ص حيث (س) هي معدل الجنوح في الحى، و(ص) هي نسبة الجانحين العائدين إلا أن التحقق من صحة هذا النوع من المعادلات على نطاق محدود حال دون الوصول إلى التعميمات أو القوانين التي تكون جوهر النظرية الاجتماعية .

ومع ذلك فإن البعض يأمل أن تكون هذه المعادلات هي البداية الموصلة إلى القوانين العلمية الاجتماعية رغم أن إمكانات ذلك تبدو - وحتى الآن - محدودة للغاية .

ج- نظرية المباراة: Game Theory

النموذج المنطقي هو الشكل الثالث الذي تأخذه بعض النظريات الاجتماعية الرياضية، ويبنى النموذج من مجموعة قضايا تتصل كل قضية بالأخرى وفقاً لقواعد محددة للاستدلال. وهذا النموذج يبنى من بعض الحدود البسيطة التي ترتبط كل

منها بالأخرى بواسطة صيغ بسيطة أو بديهيات تتميز بالاستقلال كل واحدة عن الأخرى، وغير متناقضة مع بعضها البعض، وكافية لاستخراج النظريات الرياضية المكونة للنموذج .

والنموذج المنطقي يبدأ من الموقف الذى يضم شخصين، إلى الموقف الذى يضم ثلاثة أشخاص وهكذا إلى الموقف الذى يضم «ن» من الأشخاص ويترتب على الانتقال من موقف إلى آخر تعقد الظواهر المتنوعة المرتبطة بالموضوع الذى يتناوله النموذج، وفى الوقت ذاته تزداد صعوبة الإحاطة به، ويصبح من الواضح عاما عدم كفاءة الرموز اللفظية فى تمثيل هذه الظواهر.

فضلا عن ذلك فإن من النادر أن تتم عملية الاستنباط التى بموجبها اشتقت النظريات البرهانية المكونة للنموذج عن طريق الاستدلال اللفظي، ومن هنا كان لابد من اللجوء إلى الرياضيات ورموزها لبناء نموذج منطقي^(١).

وتعد نظرية المباريات Games Theory من الأساليب ذات الكفاءة العالية التى تقدمها الرياضيات الحديثة لدراسة السلوك الإنسانى وهى تضع فى اعتبارها الخصائص الأساسية لمفهوم العقلانية من التصرف Rationality^(٢).

٤- نظرية الاشكال : Graph Theory

قدم الدكتور نادر فرجاني فى مقال له بعنوان : استخدام

(١) ناهد صالح، مرجع سابق، ص ٦٥ .

(٢) نادر فرجاني، مرجع سابق، ص ١٧ .

الأساليب الرياضية والاحصائية فى العلوم الانسانية مثال لتطبيق أحد فروع الرياضة الحديثة نسبيا وهى نظرية الاشكال فى مجال نظرية التنظيم Organization Theory وتبحث نظرية التنظيم هذه فى الطرق التى تتكون بها مجموعات من البشر فى مجالات مختلفة وقد قدم مشكلة مبسطة فى نظرية التنظيم، ثم ذكر بعض المبادئ الأساسية لنظرية الاشكال وطبقها على المشكلة محل الاختيار .

سنعتبر أن أى عضوين فى بناء اجتماعى معين تربطهما علاقة واحدة وأن هذه العلاقة إما أن تكون مرضية أو غير مرضية، أو محايدة، العلاقة المرضية قد تعنى أن العضوين يجبان بعضهما أو يعتقدان آراء متماثلة أو يمكن أن يعملوا معا عكس هذه الصفات يحدد العلاقة غير المرضية وإذا كانت العلاقة لا توصف بأنها مرضية أو غير مرضية، سنسميها محايدة، والغرض هنا هو تحديد بعض المعايير التى يمكن إذا توفرت لبناء اجتماعى معين اعتباره متوازنا طبقا لمفهوم معين .

ونظرية الاشكال تناسب تماما الصياغة الدقيقة لمشاكل البناءات الاجتماعية والشكل Graph هو مجموعة من الأشياء نسميها نقطة Points ووصلات بين هذه النقاط نسميها خطوط Lines ونظرية الاشكال تدرس خصائص الاشكال التى لا تتغير للاشكال المتناظرة بمعنى آخر خصائص الشكل ش التى تكون صحيحة لكل الاشكال المتناظرة معه ولا شك أن الاشكال ذات الإشارات تعد وسيلة ملائمة للصياغة الرياضية للعلاقات المرضية وغير المرضية فى أى بناء

اجتماعى. فأعضاء البناء الاجتماعى يمكن تمثيلهم بنقط والعلاقات المرضية بخط بإشارة موجبة، والعلاقات غير المرضية بخط بإشارة سالبة وإذا لم يوجد خط بين النقطتين نعتبر العلاقة محايدة^(١).

النموذج الرياضى Mathamatical Model

يوصف النموذج الرياضى بأنه ذلك الذى تكون مادته ذات طبيعة رياضية وتعتمد عملية التحديد الرسمى لخواص أي نموذج على الدقة التى تتحدد بها نوعية مركباته المختلفة وتجمع معا.

ويصدق هذا بصفة خاصة بالنسبة للنماذج الرياضية. وتختلف النماذج الرياضية أساسا عن النماذج بصفة عامة فى أنها تخضع للمعالجة الماهرة بالأساليب الرياضية. وبذلك فإن التنبؤات التى يحصل عليها من هذه النماذج تؤدي إلى براهين رياضية منطقية .

وتتفرد النماذج الرياضية بأنها الوحيدة التى تسمح بميكنة وأتوماتية النشاط العقلى وحتى الآن لم تتوفر فصيلا فعالة لتضخيم مقدرة الإنسان العقلية ولا يمكن التوصل إلى هذا بالاستخدام النماذج الرياضية ومعالجتها ببراعة بمساعدة الحاسبات الالكترونية وبشكل الاستخدام الذى يتزايد باستمرار للنماذج الرياضية فى مختلف فروع المعرفة ما يعرف تواترا بأنه «رياضة العلم».

١- بلاجوخست سنوف : بعض مبادئ لصياغة النماذج الرياضية، ترجمة ابراهيم البرلس (مجلة العلم والمجتمع، العدد ٤٦، مطبوعات مركز اليونسكو، ١٩٨٢) ص ١٦ .

ومع أن مصطلح «نموذج رياضي» اكتسب ذيوعا كبيرا فى السنوات الأخيرة فإنه ليس اختراعا حديثا بأي مقياس. فالاكتشافات الفيزياء فى جوهرها نماذج رياضية ولو أنها توصف غالبا بأنها قوانين فيزيائية.

وتبع اكتشافات «كبلر» أن عبر «نيوتن» عن قانون الجاذبية الكونية بالمعادلة الرياضية التالية :

$$Q = \frac{A \times B}{C}$$

حيث Q= قوة الجذب بين أى جسمين فى الكون، وهى تتناسب طرديا مع حاصل ضرب كتلتيهما (A، B) وعكسيا مع مربع المسافة بينهما (C) ويمثل هذا القانون فى الحقيقة نموذجا رياضيا نمطيا يمكن أن يطبق أسلوبا رياضيا نمطيا للتوصل إلى نتائج بالدقة وتفسيرات تتقبل بجوانب كثيرة من الحقيقة الموضوعية وخلال التاريخ قدم اكتشاف الكوكب «نبتون» دليلا بارزا على صحة هذا النموذج واليوم يتيح هذا النموذج نفسه إجراء حساب المسارات المعقدة للأقمار الصناعية وسفن الفضاء وأثبتت التنبؤات المبينة على نموذج «نيوتن» أنها دقيقة بدرجة غير عادية ومفيدة ومع ذلك يعتبر علماء الفيزياء المحدثين أن قانون الجاذبية الكونية ليس تام الصحة ويستخدمون قانون «اينشتين» للجاذبية.

وإذا كنا نقضل الحديث عن نماذج رياضية لظواهر فيزيائية على الحديث عن قوانين فيزيائية فإن هذا ليس بدافع تفصيل المصطلحات

المستخدمة وأنه فى وصف اكتشاف «نيوتن» بأنه نموذج رياضى فمن الطبيعى السماح بهامش من عدم التيقن يتعلق بدقة التنبؤ المستمد. ونسلم باحتمال وجود مجال لتحسين النموذج ومن ناحية أخرى فإنه إذا اعتبر قانون «نيوتن» حقيقة مطلقة فإن أى مشاهدة تتعارض معه تهز الثقة فى صحته وتاريخ الفيزياء ملئ بتجارب مؤلة أثارها إسقاط نظرية لصالح أخرى فى حين أن لحظات الصدق هذه ليست فى حقيقتها أكثر من تسلسل طبيعى لا مفر منه للأحداث يرتبط بالتدقيق المتصاعد للنماذج الرياضية المتعلقة بظاهرة طبيعية معينة.

واستخدام النماذج الرياضية التى تنطبق على نطاق واسع فى مجالات أخرى من العلوم بالإضافة إلى الفيزياء - يشكل فى الحقيقة واحدة من أكثر أدوات البحث شمولاً وقوة ، ويفيد بصفة خاصة لأنه أقل تكلفة واستغراقاً فى الوقت من أسلوب التجريب التقليدى وفى هذا الإطار فإن الدراسات ذات الطبيعة النوعية أو الكمية التى تطبق على نموذج رياضى للظاهرة موضوع الدرس وضع استناداً إلى افتراض معين تعتبر وسيلة سريعة وقليلة التكلفة لتحديد صحة مثل هذا الافتراض فإذا كانت نتائج هذه الدراسات لا تتفق بصورة مقنعة مع نتائج المشاهدة الفعلية للظاهرة فهذه إشارة موثوق بها على أن الافتراض الرئيسى غير صحيح. ومن ناحية أخرى فإن الاتفاق الجيد بين النتائج التى يقدمها النموذج ونتائج المشاهدة لا تتضمن بئى حال أن الافتراض سليم، بل إنها تقترح أن الافتراض مقبول ويتطلب تحقيقاً أوسع بإسلوب التجربة وبعبارة أخرى فإن استخدام النماذج

لا يحل محل التجربة الفعلية بل يقتصر على أن يدخلها في إطار المنطق .

والخلاصة أن النماذج الرياضية تختلف بصورة جوهرية عن النماذج بصفة عامة نظراً لأنها تخضع للمعالجة العميقة مستخدمة الأساليب الرياضية المختلفة لأن استخدام النماذج الرياضية يسهل أو ييسر عملية التنبؤ وذلك من خلال براهين واستدلالات رياضية منطقية ولا يمكن أن نتجاهل الدور الأساسى الذى تلعبه الحاسبات الآلية فى إبراز الدور الذى يمكن أن يلعبه النموذج الرياضى فى عملية التحليل^(١) .

ظهر من خلال ما عرضنا فيما سبق أن جانباً كبيراً من العلماء حاولوا صياغة نظريات فى مجال العلوم الاجتماعية تعتمد أساساً على الرياضيات، إلا أنه يمكن القول أن دور الرياضيات بالنسبة للنظريات الاجتماعية يمكن تلخيصه فى أنها قد تسهم فى تخليص النظرية من أى لبس أو غموض يكتنف المفاهيم الأساسية التى تنطوى عليها، وإن كان قد ظهر فى التراث نظريات يغلب عليها الطابع الفلسفى وآخر يغلب عليه الطابع الامبيريقى، فإنه يمكن أن يكون للرياضيات دور فى إعادة صياغة تلك النظريات .

ويمكن أن يحقق استخدام الرياضيات فى العلوم الاجتماعية مزيداً من الاتفاق بين العلماء حول محتوى النظريات السوسيولوجية وذلك حين يتم التعبير عن مضمون هذه النظريات ومكوناتها فى

١- المرجع السابق ، ص ٢٠.

صور كمية من خلال معادلات أو أرقام أو أية صيغة رياضية أو إحصائية ملائمة، حيث لا يمكن أن يختلف اثنان من العلماء حول لغة الرقم . وإن كان الاعتماد على الأساليب الإحصائية في العلوم الاجتماعية قد ساعد على تحقيق مزيد من الموضوعية والحيادية بالنسبة لموضوعات البحث المختلفة ونتائجها ، فإن الباحث في العلوم الاجتماعية عليه أن ينتقى من بين الأساليب والطرق الإحصائية ما يلائم موضوع البحث وإجاداته لاستخدام تلك الأساليب الإحصائية المختلفة .

إشكالية المنهج فى الأنثروبولوجيا

د. مصطفى عمر (*)

(*) قسم الأنثروبولوجيا بكلية الآداب- جامعة الاسكندرية

مقدمة:

إن القاعدة الأساسية التي نحاول الاعتماد عليها في مناقشة طرائق البحث الأنثروبولوجي وأساليبه تستند على أن المعرفة العلمية هي معرفة نظرية، وأن هدف مناهج العلم بصفة عامة هو مساعدتنا على الاختيار بين البدائل النظرية المتاحة. وينتج عن ذلك بالطبع عدد من النتائج الهامة، لعل من أبرز هذه النتائج أن المعرفة الإنسانية بصفة عامة هي أكثر من مجرد مجموعة آراء وتحيزات خاصة بين طائفة من الباحثين، وهي أكثر أيضا من مجرد جمع الوقائع، كما أنها أكثر من منظور واحد لرؤية العالم الأنثروبولوجي، فلا يمكن مثلا أن يكون مجرد تراكم الوقائع مؤديا إلى المعرفة النظرية، فهناك فارق كبير بين «الوقائع» وبين «المعرفة النظرية» على الرغم من أن الأولى تعد المطلب الأساسى للمعرفة ولتقويم النظريات، فكثيرا ما يخدع دارس علم الإنسان فيحسب أن مهمة البحث الأنثروبولوجي هي مجرد جمع أكبر قدر ممكن من المعلومات عن منطقة بحثه، حقيقة أن البحث الأنثروبولوجي يعطى للباحث السبيل والإجراءات التي يسترشد بها في جمع المعلومات والبيانات، لكن القضية الأساسية تكمن في سؤال مهم مؤداه: ما هو المعنى الحقيقي وراء هذه البيانات أو المعلومات فنحن نقرأ عددا كبيرا من البحوث التي تجعلنا نقف على بعض الوقائع والبيانات أو المعلومات، لكننا لانستطيع أن نتعرف على دلالة هذه المعلومات، إذن ، فإن مجرد تراكم هذه المعلومات، أو حتى تطور أساليب الحصول عليها، لن

يؤدى فى حد ذاته إلى تطوير المعرفة الأنثروبولوجية ولعل هذا هو التناقض بين الموقف النظرى المنهجى، الذى يهتم بالتفسير والتأويل والتحليل واكتشاف المعانى، وبين ما يعرف اصطلاحاً باسم النزعة الإمبريقية Empiricism التى تتجه أساساً نحو تصوير مهمة علم الأنثروبولوجيا بصفة خاصة، والعلوم الإنسانية بصفة عامة، على أنها البحث من أجل جمع الوقائع أو البيانات الوصفية (الأنثوجرافية) Ethnographic Data. لذلك فإن الأمبيريقية حين تتعرض للمعنى النظرية ، فإنها تعرفها فى حدود هذه النزعة أيضاً على أنها تعميم يعتمد على الوقائع المشاهدة يوضح العلاقة السببية المفترضة بينها .

وعموماً، فإن طرق جمع البيانات وتحليلها واستخلاص النتائج، تحتاج، دون شك، إلى تصورات نظرية دقيقة. فكل معالجة للمنهج تحتاج منا منذ البداية بأن نسلم بأن لكل منهج من مناهج البحث طبيعته الخاصة به، حيث أن كل منهج لا يلائم كل مشكلة ندرسها، وإنما طبيعة الموضوع الذى نتناوله بالبحث هى التى تحدد اختيارنا للمنهج الملائم. ومن هنا يمكننا القول بأننا لانستطيع أن ندرس المناهج ذاتها من فراغ، وإنما لابد أن تستند هذه المناهج بدورها على أسس نظرية، ويجب تبريرها وفهمها فى إطار هذه الأسس^(١).

(١) محمد على محمد، ١٩٨٣، «علم الاجتماع والمنهج العلمى : دراسة فى طرائق البحث وأساليبه» دار المعرفة الجامعية، الاسكندرية، ص ٣.

ولعلنا نجد أن أهم نتائج التفرقة بين المناهج والنظريات، ذلك التمييز الحاسم الذى يبدو فى هذه الأيام بين المنهج الكسبى، المنهج الكيفى، باعتبارهما طريقتين منفصلتين، أكثر منهما متكاملتان، إذن المناهج تعد باختصار شديد طرقا لحل مشكلات محددة ذات مضمون خاص. ولعل ذلك يجعلنا ننظر إلى المنهجين على أنهما يمثلان طرقا مقترحة لحل مشكلات جمع البيانات، وإستخدام أدوات البحث ، الأمر الذى يجعلنا فى النهاية نركز الاهتمام على مدى ملائمة هذين المنهجين للموضوع أو للمشكلة موضوع البحث والدراسة. ويمكن أن نخلص من ذلك إلى نتيجتين أساسيتين الأولى : هى أن المناهج هى أدوات أو طرق تخدم أغراضا ملموسة، وأن تباين الموضوعات أو المشكلات يقتضى تنوع أساليب حلها وتناولها، وهذه الغاية هى التى تحدد الحاجة إلى استخدام الحلول أو المناهج الكمية أو الكيفية، والثانية: أن المناهج لاتستخدم استخداما مجردا، ولكنها تستخدم باعتبارها أساسا لمشكلات مادية ملموسة، نحاول التوصل إلى حلول لها.

* ومن هنا سوف تتركز مناقشتنا لإشكالية المنهج فى الأنثروبولوجيا فى التعرف على المناهج وأدوات وطرق البحث المستخدمة فى الدراسات الأنثروبولوجية ، وسوف تأتى المعالجة على النحو التالى :

(ولا مناهج الاثربولوجى :

تعتمد الدراسات الأنثروبولوجية على عدة مناهج وأساليب خاصة

فى إجراء البحوث والدراسات الأنثروبولوجية، لعل من أهمها : المنهج التاريخى - المنهج المقارن - المنهج البنائى الوظيفى - وسوف نتناولها بشئ من التفصيل .

أ- المنهج التاريخى: يستخدم مصطلح التاريخ الاجتماعى Socical History للإشارة إلى دراسة التغير الذى يطرأ على المجتمع وشبكة العلاقات الاجتماعية الخاصة به، وتطور النظم الاجتماعية، والتحول فى المفاهيم والقيم الاجتماعية، وقد ارتبط هذا المصطلح بمصطلح التاريخ الاقتصادى Economic History، وكلاهما كان نتيجة مباشرة واستجابة محددة لمصطلح التاريخ السياسى، ويرجع الفصل إلى العالم العربى المسلم ابن خلدون، والعالم الإيטالى فيكو Vico فى وضع أصول التاريخ الاجتماعى، وقد أوضح فيكو ذلك فى مؤلفه الشهير «العلم الجديد» حيث استطاع أن يحول الاهتمام فى التاريخ السياسى من الحروب والمعاهدات إلى دراسة العادات والقوانين والأنظمة الاقتصادية والاجتماعية.

أما العالم العربى الشهير عبد الرحمن بن خلدون، فقد عرف التاريخ تعريفا اجتماعيا فالتاريخ عنده يهدف إلى إعطائنا صورة واضحة عن الحياة الاجتماعية للإنسان، يعنى حضارة الإنسان، ويهدف كذلك إلى معرفتنا بالظواهر الاجتماعية التى ترتبط بهذه الحضارة، وإلى معرفة الحياة البدائية والأخلاق وروح الأسرة والقبيلة وفوارق الطبقات وجميع التغيرات التى تحدثها الطبيعة الخاصة بتلك الأشياء على أعضاء المجتمع. لذلك فإن علم (العمران البشرى) يهتم

بدراسة التاريخ الاجتماعى على هذا النحو، بحيث يبحث فى «مسائل الاجتماع الإنسانى وال عمران البشرى وما يلحق بها من عوارض» .
* ومنهج التاريخ الاجتماعى عن ابن خلدون، أو الدراسة الاجتماعية للتاريخ، يعد منهجا ديناميكيا بالضرورة يسير مع حركة التاريخ ويستوعب تطور الحياة الاجتماعية وانتقالها من حالة إلى أخرى، ذلك لأن أحوال الأمم وعوائدهم ونحلهم لا تتوم على وتيرة واحدة ومنهاج مستقر، وإنما هو اختلاف على مر الأيام والأزمنة وانتقال من حال إلى حال، ويرجع هذا الاختلاف أو التباين فى أحوال المجتمعات إلى عوامل عديدة اقتصادية وجغرافية وثقافية، فالمجتمع عند ابن خلدون شأنه شأن الفرد يمر بمراحل منذ ولادته حتى وفاته والمجتمعات تبدأ بمرحلة البداوة وتنتهى بمرحلة الاضمحلال، يتوسطها مرحلتين هما مرحلة الملك، ومرحلة الترف والنعيم أو الحضارة .

وفى الانثروبولوجيا أو علم الإنسان يؤكد أصحاب المدرسة التاريخية على أهمية مفهوم التاريخ الثقافى Cultural History، فيذهب ميتلند Maitland إلى أن : «الأنثروبولوجيا عليها أن تختار بين أن تكون تاريخية أو لا تصبح شيئا على الإطلاق» وأكد بول رادين P. Radin نفس العبارة كمقدمة فى مؤلفه «منهج الأنثولوجيا» ويذهب بيركت K.Birket سميث sionith إلى أن «الحاضر لا يمكن فهمه إلا كنتاج الماضى» لذلك فإن المشكلة الحيوية للأنثولوجيا - كما يفهمها - يتعين أن تكون

مشكلة تاريخية كذلك افتتح سايبير E. Sapir مقاله الكلاسيكي الشهير عن «منظور الزمان» بقوله «إن الأنثروبولوجيا الثقافية تتجه أكثر فأكثر نحو الاعتراف بأنها علم تاريخي أساسا. فالمعلومات التي نحصل عليها يتعذر فهمها سواء في ذاتها أو في صلتها بعضها ببعض إلا بوصفها نهاية تتابع معين للأحداث التي تضرب بجنورها في الماضي السحيق ، ومن الضروري أن يتحقق عندنا نوع من الفهم التاريخي للوقائع بوصفها الهدف الأنثولوجي الخاص بالباحث».

وعموما ، فإن مصطلح التاريخ الثقافي يكتسب الحقيقي ودلالته في ضوء علم المناهج، وتنقسم المناهج في هذا الصدد إلى قسمين : قسم أنثروبولوجي ، قسم وصفي تاريخي.

أما القسم الأنثروبولوجي فهو يعطينا المداخل التي يمكن بواسطتها الكشف عن اعتبارات الزمان وصياغتها في تصورات ثقافية محددة، أما القسم التاريخي فهو الوسيلة التي بواسطتها ستصبح تلك النتائج منظورات تاريخية صادقة ومفيدة بالنسبة للشعوب التي ندرسها، والنتاج النهائي لذلك كله هو التاريخ الثقافي .

وهذا تحتل الثقافة في الأنثروبولوجيا مكانة رئيسية ، ويعد البحث التاريخي للثقافة مطلبا هاما وحيويا بالنسبة للأنثروبولوجيا الثقافية، ويعكس هذا الاهتمام دراسة نشأة الثقافة وتطورها وأصولها، وعمليا إعادة بناء تاريخ الثقافة، وتقوم هذه الدراسة على أساس دراسا توزيع الخصائص الثقافية وتحليلها ثم التحقق من مدى إمكانيتها حدوث احتكاكات واتصالات بين الوحدات الثقافية، بل يمكن أن

تشكف أيضا التتابع الزمني الذي ظهرت فيه هذه الاحتكاكات والاتصالات .

أما علماء التأويل التاريخي للثقافة من أمثال كروبر Kroeber فإنه يرى أن التاريخ هو في جوهره محاولة لإعطاء وصف دقيق لموضوع الدراسة، وليس معالجة للتتابعات الزمنية. ولهذا اعتقد أنه يمكننا الاعتماد على المنهج التاريخي في دراسة الأحداث والوقائع الحالية، وكذلك في دراسة الظواهر التي تحدث في زمن محدد، وهو ما يعرف باسم الدراسات المتزامنة Synchronic، هذا فضلا عن دراسة الظواهر التي تحدث في أزمان متعددة Diachronic فكان ماهية التاريخ لا تنحصر في عنصر الزمن كما أن الذي يميز الدراسة التاريخية هو الوصف التحليلي لأية مجموعة من الظواهر الثقافية في موقف معين بالذات. وعلى ذلك فإن الدراسة التاريخية تأخذ في اعتبارها عنصر الزمان إلى جانب عنصر المكان، وهذا هو المحك الأساسي الذي تقوم التفرقة بين العلم والتاريخ، ولاشك أن هذا الإصرار على أهمية المنهج التاريخي في دراسة الثقافة يوجد لدى كثير من علماء الأنثروبولوجيا الثقافية المحدثين^(٢) .

وعلى ذلك ، فإن الاهتمام بتاريخ الإنسان يعتبر من بين المصادر الأساسية للدراسات الأنثروبولوجية وقد تمثل ذلك في الدراسات

(٢) أحمد أبو زيد ١٩٧٤ والبناء الاجتماعي المفاهيم، الهيئة المصرية العامة للكتاب، الاسكندرية ص ١٤٠ .

المقارنة للمجتمعات والنظم والاجتماعية، وفي محاولة إعادة بناء تاريخ مجتمعات بعينها، فقد اعتمد كل من فولتير Voltaire وجوستاف كلم Gustav Klemm وسير هنرى مين Sir Henry Maine وماكلىنان G.F. McLennain وباخوفى Bachofen وفوستيل دى كولانج Fustel De Coulanges ولويس مورجان L.H. Morgan وإيوارد تايلور E.B. Tylor اعتمدوا جميعا على المصادر التاريخية فى إقامة علم اجتماع مقارن وفى الدراسات الأنثروبولوجية الأمريكية المعاصرة سنجد أيضا اهتماما واضحا بالمصادر التاريخية فيما يعرف اصطلاحا باسم «الذاكرة الثقافية» Memory Culture حيث تحاول المدرسة التاريخية أن تعتمد على ذاكرة كبار السن من القبائل الهندية لكى تحصل على معلومات عن ثقافة هذه القبائل .

ويعتمد علماء الأنثروبولوجيا والمهتمين بتاريخ الشعوب على ثلاث مصادر ومناهج رئيسية فى تحقيق أهدافهم هى :

(١) الوثائق المكتوبة Writtm ولكن هناك صعوبات تواجه الاعتماد على هذه الوثائق، وخاصة فى المجتمعات التى لاتوجد عنها وثائق ملونة..

(٢) التراث الشفاهى Oral Traditions، حيث يغطى التراث الشفاهى أنواعا متعددة من الظواهر والأنظمة والعلاقات الاجتماعية، ويمكن أن نعثر على التراث الشفاهى من دراسة هذه الظواهر الاجتماعية، حيث تكشف عن أهمية الاعتماد على هذا المصدر فى

البحوث التاريخية الأنثروبولوجية .

(٣) البحث الحقلى Field Work، حيث يمثل البحث الحقلى القائم على الملاحظة بالمشاركة وجمع البيانات من الواقع مصدراً رئيسياً للمعلومات، وجزءاً رئيسياً من تدريب الباحث الأنثروبولوجى، وذلك بهدف إبراز الوظائف المختلفة للأنساق الاجتماعية والعلاقات المتبادلة بينها إلى جانب تقويم وصف دقيق ومتكامل للحياة الاجتماعية فى مجتمع أو ثقافة معينة، وهذا لن يتم إلا من خلال إجراءات وأساليب البحث الحقلى .

ب- المنهج المقارن : يمكن القول بأن المنهج المقارن ينطبق على علم الأنثروبولوجيا بكل فروعه ومجالات دراسته، حيث أن أي بحث أنثروبولوجى ينطوى بالضرورة على مقارنات بين بعض المتغيرات، ويكتسب المنهج المقارن دلالة خاصة فى البحث الأنثروبولوجى، حيث يقصد به عادة «دراسة توزيع الظواهر الاجتماعية فى مجتمعات مختلفة، أو أنماط محددة من المجتمعات، وكذلك مقارنة النظم الاجتماعية الرئيسية من حيث استمرارها وتطورها والتغير الذى يطرأ عليها، أو حتى مقارنة مجتمعات بعضها ببعض» .

* أما عن مجالات البحث المقارنة فى الأنثروبولوجيا فهى تتلخص فيما يلى :

(١) دراسة أوجه الشبه والاختلاف بين الأنماط الرئيسية للسلوك الاجتماعى، ويشمل ذلك أيضاً دراسة السلوك السياسى للأفراد مثل التصويت فى الانتخابات وغيرها، وكذلك دراسة السلوك الإجرامى

- ومعدلات الجرائم فى المجتمع وأنماطها فى مجتمعات مختلفة .
- (٢) دراسة نمو وتطور مختلف أنماط الشخصية، والاتجاهات السيكولوجية والاجتماعية فى مجتمعات مختلفة وثقافات متعددة، وتمثل هذه الدراسات بحوث الثقافة والشخصية ودراسات الطابع القومى National character (٣) .
- (٣) دراسة النماذج المختلفة من المنظمات Organizations، وخصوصا المنظمات البيروقراطية مثل النقابات العمالية، والمنظمات السياسية والصناعية والمهنية فى مجتمعات مختلفة .
- (٤) دراسة النظم الاجتماعية Social institutions، والتي بالضرورة تنقسم إلى أقسام فرعية، مثل تحليل المعايير النظامية العامة أى دراسة نظم الزواج والأسرة والقرابة، ثم دراسة الأنساق الثقافية مثل المعتقدات الدينية، ودراسة العمليات التى تطرأ على المجتمع مثل التحضر والديموقراطية، ودراسة النظم الفرعية كالعادات والفولكلور، وهى دراسات ذات صلة وثيقة بالأنساق الثقافية .
- (٥) تحليل ومقارنة مجتمعات بأكملها، فعادة ما تتم المقارنة بين المجتمعات وفقا للنمط الرئيسى السائد للنظم الاجتماعية والثقافية الموجود فيها .

(3) Nadel, 1958, "Foundations of Social Anthropology", Glencoe' Press, P.228.

* أماعن الصعوبات المنهجية والنظرية ، فإن بناء الأنماط من أجل المقارنة يطرح عددا من المشكلات المنهجية والنظرية يمكن تلخيصها على النحو التالى :

(١) مشكلة اختيار وحدة المقارنة التي على أساسها سوف تتحدد المتغيرات الرئيسية فى البحث .

(٢) مشكلة تحديد المؤشرات التى نقارن على أساسها بين المتغيرات، حيث تختلف هذه المؤشرات تبعا لاختلاف وحدة المقارنة.

(٣) مشكلة إمكانية المقارنة Comparability بالنسبة لكل وحدة من وحدات المقارنة .

(٤) مشكلة المعاينة Sampling، فالعينات الصغيرة نسبيا لوحداث المقارنة تثير تساؤلا عن مدى إمكانية صياغة مقارنات متعمقة تجريبية، والمشكلة المنهجية القائمة بالنسبة للعينات عموما هى مدى تمثيل هذه العينات للمجتمع الأصى، ففى الدراسات المقارنة التى تهدف إلى اختبار الفروض أو القضايا العامة، تكون درجة تمثيل الوحدات المقارنة للمجتمع الأصى الذى تنتسب إليه مسألة بالغة الأهمية.

وهذه الصعوبات المنهجية تختلف عادة باختلاف المادة اللازمة للتحليل المقارن^(٤)

ج - المنهج البنائى الوظيفى : بعد أن تطورت الأنثروبولوجيا فى

(4) warwick D,& samuel osherson, "Comparative Research / methods" NJ prentice Hall. 1973. pp.43. 47.

الفترة التي أعقبت الحرب العالمية الأولى، ظهرت إتجاهات جديدة تحاول أن تتجنب الصعوبات والمشكلات التي صاحبت استخدام وتطبيق المنهج المقارن تطبيقاً تقليدياً. وبذلك ظهر ما يعرف الآن في الدراسات الأنثروبولوجية باسم «الاتجاه الوظيفي» الذي أخذ أصحابه يؤكدون على أنهم يدرسون الظواهر في إطارها وسياقها الكلي لهذا فهم يبتعدون عن المقارنات التي حاولت أن تعزل النظم الاجتماعية عن سياقها البنائي عزلاً تحكيمياً، لكن الشيء الملاحظ في الوقت الحاضر هو أن العلماء الوظيفيين لا زالوا يعتبرون المقارنة عظيمة الفائدة بل ويصعب الاستغناء عنها في دراساتهم. لذلك فقد ذهب بعض العلماء إلى أن الاتجاه الوظيفي يهدف إلى التوصل إلى تعميمات تتعلق بالصلات المتبادلة بين النظم في المجتمعات ذات الطبيعة الخاصة، وإلى تصنيف هذه المجتمعات حتى يمكن إدراك التشابه بينها، والمقارنة بينها في محاولة لاكتشاف بعض مظاهر التماثل بين هذه الوحدات البنائية، ومعنى ذلك أن الوظيفية سوق تستعين بالطريقة المقارنة إستعانة مباشرة لتحقيق أهدافها. ومنها اكتسب البحث المقارن أهمية خاصة وتدعيماً قوياً بعد أن كتب نادل Nadel بعض الدراسات الأنثروبولوجية، والتي أكد فيها على الحاجة الملحة والماسة لدراسة الوقائع الاجتماعية في مواقف صناعية تمكنا من المقارنة بينها، وهو يؤكد أن علماء الأنثروبولوجيا يتمسكون دائماً بالسياق الأشمل، ويتمكنون من عزل العناصر عن سياقها لئلا يفقد معناها⁽⁵⁾.

(5) Nadel, op.ct p.230.

* لذلك حاول المنهج البنائي الوظيفي المزاوجة بين المنهج المقارن، والاتجاه الوظيفي فى الدراسات والبحوث الأنثروبولوجية، حتى يتمكن من دراسة الظواهر الاجتماعية فى سياقها الكلى من ناحية، والتعرف على الأنوار والوظائف التي يؤديها كل نظام من النظم الاجتماعية من ناحية أخرى، لمعرفة طبيعة البناء الاجتماعى Social structure للمجتمع ككل .

وحتى تتضح لنا صورة هذا المنهج نعطى مثالا لتلك الدراسة الشهيرة و الرائدة فى مجال الدراسات الأنثروبولوجية الحقلية، والتي قام بها مالينوفسكى Malinowski ليوضح التداخل بين الظواهر الاجتماعية وتفسيرها فى إطار بنائى ووظيفي، تلك الدراسة التي ضمنها كتابه الذى يحمل عنوان : قبائل الأرجونوتس بالمحيط الهادى Argonauts of the western Pacific الذى نشره فى عام ١٩٢٢، حيث استخدم المنهج البنائي الوظيفي فى دراسة النشاط الاقتصادى الذى يمارسه سكان جزر التوريرياند والذي يعرف بنظام الكولا Kual System حيث يدخل سكان هذه الجزر مع سكان بعض الجزر المجاورة فى نوع من التحالف أو الاتفاق يهدف إلى تبادل أشياء وسلع معينة تتألف من «عقود» طويلة من الصدف الأحمر، و«أساور» من الصدف الأبيض، ويتألف نسق التبادل فى أن العقود تنتقل من مجتمع لآخر فى إتجاه واحد لايتغير حول محيط الدائرة تنظم الجزر، بينما تنتقل الأساور فى الإتجاه المضاد، وهذه السلع لاتحمل قيمة عملية على الإطلاق بقدر ما لها قيمة شعائرية

وطوقوسية، كما أنها تتصل اتصالاً وثيقاً بالمركز الذى يحتله الفرد فى المجتمع^(٦).

ولقد كانت المدارس التاريخية المختلفة فى الأنثروبولوجيا، وبخاصة فى المدرسة الأمريكية، ننظر إلى الثقافة عموماً، باعتبارها مجموعة من العناصر غير المتصلة، بل والمتباينة فى نشأتها، إلا أن البعض قد تصدى لهذا المفهوم، وبخاصة العلماء الوظيفيين وعلى رأسهم برونيسلاو مالينوفسكى، حيث تتخذ الوظيفة عنده جانبين الأول : يذهب إلى أن كل ثقافة هى عبارة عن كيان كلى وظيفى متكامل شبيهة بالكائن الحى، ولانستطيع أن نفهم أى جزء من أى ثقافة إلا فى ضوء علاقته بالكل. الجانب الثانى : هو محاولة تحديد الوظيفة النهائية للثقافات الإنسانية ، وتفسير وجودها فى المجتمعات، وهنا يبرز مفهوم الوظيفة الثقافية^(٧) . فى حين يوجه «رادكليف برون» R.Brown اهتمامه إلى دراسة المجتمع لا إلى الثقافة، فيؤكد أن المجتمع يتكون من أجزاء متداخلة وظيفياً، وهو بذلك يسعى إلى تحقيق الأهداف التالية :

١- الوصف الدقيق للأداء الوظيفى للأبنية الاجتماعية الموجودة فى المجتمعات الإنسانية، مؤكداً على دورها فى الحفاظ على البناء

(6) Malinowski, B., "Argonauts of the western Pacific," London ,
Rouledge & Kegan Paul, 1922. pp.22-24.

(٧) محمد محمود الجوهري، ١٩٩٥ «الأنثروبولوجيا : أسس نظرية» دار المعرفة
الجامعية ، الاسكندرية ، ص ٢٩.

الاجتماعى.

٢- التصنيف المنهجى للظواهر الاجتماعية.

٣- صياغة القوانين العامة التى تحكم الظواهر الاجتماعية .

* لذلك فإن المنهج البنائى الوظيفى يهتم اهتماما كبيرا ببناء الثقافة، والعلاقة القائمة بين أجزائها، كما يهتم أيضا بدراسة المجتمع والثقافة والعلاقات المتداخلة والمتشابكة بينهما، والتى تتساند مع بعضها تساندا وظيفيا .

ثانيا : طرق وأدوات البحث الأنثروبولوجى :

لقد أصبحت الأنثروبولوجيا علما يعتمد على مناهج متخصصة فى البحث، إلى جانب أنها أصبحت فنا بممارستها بعض الطرق والأدوات الفنية الدقيقة فى إجراء بحوثها الحقلية،، هذا فضلا عن النظريات الخاصة به كعلم متخصص من العلوم الإنسانية، وقد أصبحت الفكرة القائلة «بأنه يتعين على الأنثروبولوجى أن يبحث بنفسه عن البيانات التى تحتاج إليها دراساته بدلا من الاعتماد على كتابات الرحالة» فكرة شائعة فى أواخر القرن التاسع عشر، فقد قام ، فراتر بواس Boas بدراسات عن الأسكيمو بين عامى ١٨٨٣- ١٨٨٤، ثم قام هادون Hadon فى إنجلترا على رأس بعثة جامعة كمبردج لدراسة منطقة مضائق توريس Torres straits فى المحيط الهادى بين عامى ١٨٩٨-١٨٩٩، وكانت هذه الرحلة علامة مميزة فى تشكيل الأنثروبولوجيا كعلم يحتاج إلى التخصص والتفرع، ويعتمد على الخبرة الحقلية، باعتبارها عنصراً جوهريا فى

تمرين الطلاب وتدريب الدارسين لهذا العلم^(٨) .

أما عالم الأنثروبولوجيا الشهير مالمينوفسكى، فهو الذى عمل على تدعيم البحث الحقلى فى ميدان الأنثروبولوجيا، فقد قام بدراسة لسكان جزر التروبريانند Trabriand فى ميلانيزيا أمضى فيها فأربع سنوات من عام ١٩١٤ - ١٩١٨ . وهى فترة تطول كثيرا عن المدة التى أمضاها أى باحث أنثروبولوجى من قبل، كما كان مالمينوفسكى أول أنثروبولوجى يستخدم لغة الأهالى فى إجراء البحث، وكان كذلك أول من عاش مع الأهالى وبطريقتهم الخاصة طيلة مدة الدراسة. وترجع أهمية دراسات مالمينوفسكى الحقلية إلى أنها أكدت أن فهم الحياة الاجتماعية لدى شعب من الشعوب لن يتحقق إلا إذا درست دراسة مركزة ، كما كان يؤمن بأن القيام بدراسة حقلية مركزة واحدة على الأقل فى مجتمع يؤلف جزءا ضروريا من تدريب الباحث الأنثروبولوجى .

* ومعنى هذا أن الدراسة التكاملية Integrative فى الأنثروبولوجيا لن يتحقق إلا إذا اتصل الباحث اتصالا مباشرا ووثيقا بالمجتمع والثقافة التى يتناولها، وهذا مايعرف بالدراسة الحقلية . Field- study. أى أن الباحث عليه أن يعيش المجتمع ويلاحظ نظمته ملاحظة مباشرة ودقيقة .

* وعموما ؛ فإن أهم الطرق والأدوات المستخدمة فى البحث الأنثروبولوجى يمكن ذكرها على النحو التالى :

(٨) أحمد أبو زيد، ١٩٥٦ «الطريقة الأنثروبولوجية فى دراسة المجتمع».. حوليات كلية الآداب- جامعة الاسكندرية، المجلد العاشر من ٣-٥ .

(١) الملاحظة بالمشاركة Participant observation.

(٢) الإعتماد على الإخباريين Informants.

(٣) الإقامة فى مجتمع البحث

(٤) إجراء المقابلات Interviewes

(٥) استخدام أنوات التسجيل (الكتابية، الصوتية، والمرئية..الخ).

(٦) دراسات الحالة Case studies.

* أما عن أداة الملاحظة بالمشاركة فهي تتلخص فى أن يعيش الباحث أو القائم بالملاحظة مع الأشخاص المطلوب ملاحظتهم لفترة زمنية طويلة نسبيا، قد تمتد إلى ما يقرب من العام، وذلك للتعلم فى فهم خصائصهم الاجتماعية والثقافية والسلوكية والاقتصادية، وقد استخدمت هذه الطريقة فى البحوث الانثروبولوجية، وبخاصة فى دراسة مجتمعات كلية وثقافات وأحياء، ومدن ومصانع وجماعات، ويتعين على الباحث الملاحظ المشارك أن يبتعد عن التحيز لفئة من الفئات فإذا قام بدراسة مصنع مثلا فإن عليه أن يدرس العمال والإدارة دون أن يتحيز إلى جانب فئة معينة منهم، وهو يندمج فى الواقع الذى يعايشه، ولكنه يحاول قدر المستطاع أن يصوره تصويرا موضوعيا .

وهنا لابد من الإشارة إلى الإلتزام الاخلاقى للقائم بالملاحظة، فاستخدام الملاحظة المشاركة يقتضى من الباحث الإقامة الكاملة فى مجتمع الدراسة والاندماج مع اعضائه، وهو فى هذه الحالة يتعرف على كل ما هو «تحت السطح» ومن ثم يواجه مشكلة وبخاصة عند

مرحلة كتابة تقرير البحث ونشره، فهل يخضع فى سلوكه لمتطلبات العلم التى تقتضى منه الصدق والتزام الصدق المطلق؟ أم أنه يحذف بعض الأمور التى تمثل خصوصيات المجتمع أو الجماعة والتى استطاع إدراكها من خلال العلاقة الوثيقة التى تطورت أثناء إجراء البحث، وربما يكون فى حذف هذه المعلومات وإخفائها تشويها لنتائج البحث، ومن المؤكد أن الباحث قد التزم بأنه لن يحدث ضررا لأولئك الذين حصل منهم على المعلومات، لذلك فإن مواجهة تلك العضلة يعتمد إلى حد كبير على أخلاقيات الباحث القائم بالملاحظة المشاركة. لذلك يلجأ الباحث إلى تعريف بعض أفراد المجتمع المستنيرين بمهمته الأساسية ، والتى من الممكن أن يستفيد منها أعضاء المجتمع أنفسهم فى البرامج التى تهدف لصالح أعضاء المجتمع، وإن تضير المجتمع بأي حال من الأحوال .

* أما طريقة الاعتماد على الاخباريين: فهى تعتمد على الاستعانة ببعض المرشدين أو بعض الإخباريين Informants الذين يكونون فى العادة من السكان الأصليين للمجتمع نفسه، ويقومون بدور أساسى يتمثل فى تقديم المجتمع للباحث، وتعريفه بمختلف ظواهره، كما يكون لهم دور فى تعليم الباحث الأنثروبولوجى لغة الأهالى، لكن ذلك لايعنى أن يكفى الباحث الأنثروبولوجى بتلك المعلومات والتفسيرات التى يحصل عليها عن طريق الإخباريين بل عليه أن يتحقق بنفسه من كل ما يذكر أو يقال له، ومن ثم فإنه يتخذ من الإخباريين مدخلا للإندماج فى المجتمع والتعرف عليه، لذلك لابد أن

يستعين الباحث الأنثروبولوجى فى دراسته الحقلية بعدد من الأشخاص الذين يشغلون مراكز وأوضاع أساسية فى مختلف قطاعات البناء الاجتماعى ويفترض أن يكون لدى هؤلاء الإخباريين معرفة تفصيلية بالثقافة السائدة، وهذا لا يمنع من أن يعتمد الباحث بصفة دائمة على إخبارى أساسى، بحيث يعتبره معاوناً أساسياً له فى الدراسة .

ومن المواد التى يفيد منها الباحث الأنثروبولوجى، والتى يحصل عليها من بعض الإخباريين، تلك المادة المسجلة سواء كانت صورا فوتوغرافية، أو أشرطة تسجيل مسجل عليها مواد ثقافية عديدة، أو أفلاما لبعض الأنشطة الاجتماعية والاقتصادية والثقافية، يمكن أن تفيد الباحث فائدة محققة فى إجراء بحثه والإلمام بعناصر البناء الاجتماعى لمجتمع بحثه .

*** والإقامة فى مجتمع الدراسة:** تتطلب ضرورة أن يتعلم الباحث اللغة الوطنية التى يتحدث بها الأهالى، لأنه حين يتكلم لغة ذلك المجتمع، فإنه يتعلم فى نفس الوقت ثقافتهم ونظمهم الاجتماعية التى تتبلور فى مصطلحات تلك اللغة وألفاظها، فكل شئ فى حياة الأهالى الاجتماعية يعبر عنه إما فى شكل ألفاظ، أو فى شكل أفعال، أي إما بالقول أو العمل، وحينما يصل الباحث إلى فهم معانى كل كلمة من كلمات تلك اللغة وطريقة استعمالها فى مختلف المواقف والمناسبات يكون قد استكمل دراسة المجتمع .

* أما عن المقابلة : فهي أداة للبحث تمثل الحوار اللفظي الذي يتم وجها لوجه بين الباحثالقائم بالمقابلة وبين شخص آخر أو مجموعة أشخاص آخرين ،

وعموما ، فإن المقابلة تتكون من ثلاث عناصر متميزة هي :

أ- القائم بالمقابلة Interviewer .

ب- المبحوث . Interviewee .

ج- موقف المقابلة The Situation of Interview

وهناك ارتباط وثيق بين العناصر الثلاثة على نحو يؤثر في النتائج العامة للمقابلة ، ويتوقف نجاح المقابلة إلى حد كبير على مهارة الباحث القائم بها ، ومدى فهمه لدوافع السلوك ، ومبلغ وعيه وإدراكه لمختلف العوامل في الموقف المحيط به ، والتي تدفع المبحوث في بعض الأحيان إلى الوقوف موقفا سلبيا من الباحث أو إعطاء بيانات محرفة لاتتسم بالثبات والصدق .

والمقابلة من يحتاج إلى مهارة وخبرة ومران وتدريب يكتسبها الباحث عن طريق الممارسة العملية والنزول إلى الميدان والاحتكاك بجمهور البحث ، والقدرة على النفاذ إلى دوافع السلوك ، ومكونات الشخصية ، وأساليب الاتصال والتأثير . لذلك فإن المقابلات التي يعقدها الباحث مع أعضاء المجتمع ، من شأنها أن تجعله قادرا على إدراك الدلالات المختلفة لأنماط السلوك والعلاقات الوظيفية بين الظواهر والنظم السائدة^(١)

ويستطيع الباحث أن يختار موضوعات المقابلة بالاعتماد على

(١) محمد عل محمد ، مرجع سابق ، ص ٢٦٤ .

بعض المؤلفات المتاحة لدى الأنثروبولوجيين، والتي تقدم لهم دليلا عاما للدراسة الحقلية، وأكثر هذه المؤلفات شيوعا هي «موجز المواد الثقافية» ميردوك Merdoux ١٩٦٠، والدليل الذى أصدره المعهد الملكى للأنثروبولوجيا فى بريطانيا عام ١٩٥١ بعنوان : ملاحظات واستفهامات فى الأنثروبولوجيا Botes and queries on Anthropology ويحتوى الدليل الأول على ثمانين فئة عامة تنقسم إلى ٦٣٣ موضوعا، يضم كل منها ما بين ٥ - ٢٠ موضوعا متخصصا للبحث، هذا فضلا عن أن الباحث يستطيع أن يستعين أيضا بمؤلفات أخرى مخصصة لميادين محددة بالذات مثل عملية تنشئة الأطفال اجتماعيا Socialization، وهى تستخدم جميعا كأساس للمقابلات.

• أما عن الأدوات المستخدمة فى البحث الأنثروبولوجى ، فهى متعددة تبدأ بالتسجيل اليومى الكتابى فى جمع المادة الأنثروجرافية (المادة الوصفية Ethnographic Data) من الميدان يتخللها استخدام مجموعة مختلفة من أدوات جمع المادة، سواء كانت أدوات تستخدم للتسجيل الصوتى (كاسيت) أو تصوير فوتوغرافى للحياة اليومية فى المجتمع، حتى أيضا التصوير المرئى، أو ما يعرف بالأنثروبولوجيا المرئية .

• أما دراسة الحالة ، فهى تمثل أداة تحليلية للسلوك والمواقف الاجتماعية ، وطريقة للتعمق الكيفى فى فهم الظواهر، والحالة التى يدرسها الباحث قد تكون شخصا أو جماعة مثل الأسرة أو مجتمع

محلى، والهدف من دراسة الحالة هو البحث التفصيلى لكافة جوانب الحالة المراد دراستها. ومن ثم يحاول الباحث أن يجمع أكبر قدر ممكن من المعلومات عن هذه الحالة، وبخاصة تلك المعلومات التى تتصل بتاريخ حياة الحالة وتطورها، ويمكن استخلاص أهم خصائص دراسة الحالة على النحو التالى :

١- إنها طريقة للحصول على معلومات شاملة عن الحالة المدروسة.

٢- إنها طريقة للتحليل الكيفى للظواهر والحالات .

٣- إنها طريقة تهتم بالموقف الكلى وبمختلف العوامل المؤثرة فيه والعمليات التى يشهدها .

٤- إنها طريقة تتبعية، أى أنها تعتمد اعتمادا كبيرا على عنصر الزمن، ومن ثم فهى تهتم بالدراسة التاريخية .

٥- إنها منهج ديناميكى لا يقتصر على بحث الحالة الراهنة .

٦- إنها منهج يسعى إلى تكامل المعرفة، لأنه يعتمد على أكثر من أداة للحصول على المعلومات .

ثالثا : بين المنهج والنظرية فى البحث الحقلى الأنثروبولوجى :

تواجه البحوث الاجتماعية - عموما - معضلة منهجية فريدة، ألا وهى أن ظروف البحث فى ميادين هذه العلوم تشكل متغيرا مركبا شديدا يؤثر تأثيرا مباشرا فيما تخلص إليه البحوث من نتائج، ومن ثم يستخدم مصطلح البحث الحقلى Field Research لكى يعنى فى الحقيقة موقفا منهجيا محددا وصريحا هذا المصطلح أساسا

بأداة بحثية معينة هي أداة الملاحظة بالمشاركة Participant observation التي تستخدم استخداما رئيسيا في البحوث الأنثروبولوجية الاجتماعية والثقافية، إذ استطاع الأنثروبولوجيون باستخدام هذا التكنيك جمع تراث هائل حول مختلف الثقافات والمجتمعات، دون أن يخفى هذا التراث - للأسف - بمحاولة نظرية تستهدف تصنيفه ووضع الأساس التفسيري له، لكن طريقة الملاحظة بالمشاركة أصبحت تشكل لب المنهج الأنثروبولوجي في الدراسة الحقلية، إذ تقتضى من الباحث أن يقيم فترة كافية من الزمن في المجتمع محل الدراسة، يستطيع معها أن يتعرف على الوظائف المختلفة - الظاهرة والكامنة- التي تؤديها النظم الاجتماعية أو العناصر الثقافية، ويعتقد الأنثروبولوجيون أن هذه الطريقة سوف تمكن الباحث من جمع أكبر قدر ممكن من البيانات والمعلومات، ووصف الحياة الاجتماعية والثقافية وصفا تفصيليا دقيقا، يستطيع الباحث أن يكتب بعدها تقريراً متكاملاً ومفصلاً عن هذا المجتمع أو تلك الثقافة التي يدرسها .

* ومن هنا لابد من الوقوف على بعض المشكلات المنهجية في البحث الأنثروبولوجي الحقلى، إن المشكلات الخاصة بالملاحظة والتفسير والتسجيل ملازمة البيانات النظرية تظهر بوضوح في البحث الحقلى لأن الملاحظ جزء من الميدان الذى يعمل فيه .

والمشكلة المنهجية الرئيسية في هذا الصدد نتيجة للفروق بين الواقع الطبيعى، كما يصفه عالم الطبيعة والواقع الاجتماعى كما

يصفه العالم الاجتماعى ولقد حدد ألفرد شوتز A. Shutz هذا الفارق فى هذه الفقرة التالية :

(إن هذه الأمور ترجع إلى الحقيقة التى مؤداها أن هناك فارقاً جوهرياً فى بناء الأفكار والمفاهيم التى يكونها المتخصصون فى العلوم الاجتماعية وتلك التى يكونها المتخصصون فى العلوم الطبيعية .

فمن اليسير بالنسبة للعالم الطبيعى أن يحدد فى ضوء القواعد الاجرائية للعلم الذى يتخصص فيه مجال ملاحظته وأن يحدد أيضاً الوقائع، والبيانات، والحوادث الملائمة لمشكلته أو لبحثه العلمى الذى يقوم به .

ولا يتضمن العالم الطبيعى كما يستكشفه عالم الطبيعة أية معانى خاصة أكثر من الجزيئيات، أو الذرات، أو الالكترونات كما توجد بالفعل. أما محال الملاحظة بالنسبة للباحث الاجتماعى ، أى الواقع الاجتماعى، فإن له معنى محدد وبناء يناسب الكائنات الإنسانية التى تعيش، وتفكر، وتتفاعل فيه. ولقد استطاعت هذه الكائنات أن تفسر هنا الواقع من خلال خبرتها اليومية المباشرة ومن ثم يصبح على الباحث الاجتماعى أن يصوغ مفاهيمه وأفكاره، التى سوف يدرس بها الواقع فى ضوء التفسيرات التى طورها الناس خلال حياتهم اليومية وبدون ذلك تصبح دراسته منعزلة عن حياة الناس وأفكارهم، أى منعزلة عن الموضوع الذى يدرسه أصلاً، وإن كان الملاحظ ليس جزءاً من المجال السلوكى الذى يدرسه. وعموماً فإن الملاحظ كجزء

من مجال السلوك الذى يدرسه يصطحب معه مجموعة من المعانى
والافكار الملائمة التى تمكنه من الدخول إلى البيئة التى يدرسها
ويلاحظها، عند هذه النقطة تواجهه بعض المشكلات . نذكر منها ما
يلى :

١- إن عليه أن يفسر سلوك الأشخاص الذين يلاحظهم وفقا
للمعانى التى تسود فى حياتهم اليومية .

٢- إن عليه أن يكون تصورا نظريا يأخذ فى اعتباره قيم
واتجاهات ومعانى السلوك الذى يلاحظه على نحو يسمح له بعقد
صلات شخصية متبادلة مع الأشخاص والجماعات التى يدرسها .

٣- إنه ان يستطيع أن يكون علاقة اجتماعية حميمة فى الواقع
الاجتماعى دون أن يتجاهل ولو جزئيا اتجاهه العلمى .

والواقع أن الاعتبارات السابقة تطرح أمامنا مشكلة رئيسية وهى
كيف نتق فى المعلومات التى يتضمنها الباحث الحقل فى بحثه من
الناحية العلمية وإلى أى مدى نستطيع أن نقيم على أساسها نظريات
تفسيرية ؟

والمشاركة المتعمقة تقلل درجة تقنين المقابلة، لكن المشاركة تقدم
لنا نظرة أكثر ثراء للعمليات الاجتماعية، وبدون استخدام بعض
أنواع الأسئلة المنظمة خلال المشاركة تصبح هذه الطريقة ذات فائدة
محددة جدا بالنسبة لاختبار صحة الفروض .

إن الاستخدامات الحديثة لطريقة الملاحظة المشاركة فى البحث
الحقلى تميل إلى تسجيل ما يقع من حوادث، ذلك باستثناء عدد قليل

من الدراسات التى تستعين بهذه الطريقة فى التحقق من صحة الفروض، نذكر منها دراسة قام بها عدد من علماء النفس والأنثروبولوجيا حول تنشئة الأطفال وأساليبهم فى الثقافات المختلفة^(١٠).

لكن ستظل المشكلة الرئيسية هى عدم وجود نظرية محددة أو عدم رغبة الباحث - على الأقل- فى توضيح افتراضاته النظرية مبدئياً، وإنما تنحصر مهمة هذه الدراسات فى الغالب فى إضافة العديد من الملاحظات الوصفية فى ميدان العلوم الاجتماعية .

* لذلك فعلى الباحث أن يحدد الأسس التى تركز عليها استنتاجاته، والتى يمكن تلخيصها على النحو التالى :

١- على الباحث أن يصوغ بوضوح ما يسعى إلى تحقيقه فى بحثه، وأن يستكشف بعض القضايا النظرية العامة، ويختبر صحة الفروض .

٢- المعلومات التى يمكن للباحث الحصول عليها فى البحث الحقلى، يتعين عليه استكمالها مباشرة، وبخاصة الدراسات الخاصة بالتراث، والتى يحصل عليها من دراسته الميدانية .

٣- يجب على الباحث على أن يحدد الإجراءات التى تناسب أهداف بحثه، مثل صياغة بعض أسئلة المبحوثين، وتحديد نوعية الصلات التى يتعين عقدها مع مجتمع البحث .

(10) Becker & Geer, B., "Participant observation and Interviewing: Acomparision oranization , 10, No.3, 1959, pp. 28-32 .

هذه كلها تعد صورة لبعض التوجيهات التي يجب أن يسترشد بها الباحث الحقلى فى ميدان الأنثروبولوجيا، لكن الواقع الذى يحدث فعلا فى هذه البحوث يمكن إنجازها فى القضايا الآتية :

١- عادة ما تكون لدى الباحث فكرة عن مشكلة البحث، وحتى عن النتائج التى سيصل إليها، ومعنى ذلك أن يتجه نحو البحث الحقلى وفى ذهنه الحصول على معلومات معينة بالذات تدعم أفكاره المبدئية.

٢- كثير من الباحثين يتجهون للميدان ولديهم أفكار عن نتائج البحوث السابقة، وقد يستخدمون هذه الأفكار فى إساءة فهم المعلومات التى يحصلون عليها .

٣- يخلو - أحيانا - تقرير البحث من التصور الزمنى الذى يعنى ضرورة تحديد المراحل التى مرت بها الدراسة الحقلية، وأثر كل مرحلة منها فى تعديل أو تطور أهداف البحث وما خلص إليه من نتائج .

٤- الاتجاه العام فى الدراسات الحقلية، هو إبراز النتائج الواقعية والمعلومات الوصفية، أكثر من الاهتمام باستخدام هذه المعلومات فى تطوير البناء النظرى والأسس المنهجية .

أهم مراجع الدراسة

أولا المراجع العربية

- ١- أحمد أبوزيد، ١٩٧٤، «البناء الاجتماعي - ج١ المفاهيم» الهيئة المصرية العامة للكتاب، الاسكندرية.
 - ٢- احمد أبوزيد، ١٩٥٦ «الطريقة الأنثروبولوجية فى دراسة المجتمع» ، حوايات كلية الآداب - جامعة الاسكندرية، المجلد العاشر.
 - ٣- محمد على محمد ، ١٩٨٣ ، «علم الاجتماع والمنهج العلمى: دراسة فى طرق وأساليب البحث»، دار المعرفة الجامعية الاسكندرية.
 - ٤- محمد محمود الجوهري، ١٩٨٥ ، «الأنثروبولوجيا: أسس نظرية» ، دار المعرفة ، الاسكندرية.
- ثانيا المراجع الاجنبية :

- (1) Becker & Geer,B. "Participant observation and Interviewing: Acomparison organization, 10. No. 3 1957 .
- (2) Malinowski, B., 1922, Argonouts of the western pacific london, Rouledge & kegn paul,
- (3) Nadel, 1958, "Foundations of social Anthropolgy". Glencoe, the fress .
- (4) Warwick , D., & samuel osherson, 1973, "Comparative Research Methods" N.J. Prentice Hall .

مناهج البحث فى علم النفس الحديث (رؤية نقدية)

د. عبد الرحمن العيسوى^(*)

(*) أستاذ علم النفس بجامعة الاسكندرية

تتوقف نتائج البحوث العلمية ومدى ما يتوفر فيها من الدقة والموضوعية وما تتسم به من التقدم والتطور على المنهج الذى يستخدمه العالم فى الكشف عن الحقيقة وفى وصف المظاهرة التى يقوم على دراستها وفى عرض المعطيات أو المعلومات التى يتوصل إليها، فكلما زاد المنهج دقة وصوابا وكلما كان أكثر ملائمة للمظاهرة المدروسة كانت المعطيات أكثر دقة وسلامة بل وأكثر قابلية للتطبيق ومن ثم استخدام العلم وتقنياته فى تطوير المجتمع والنهوض به وهو الأمر الذى يمثل الهدف الأسمى أمام علمائنا فى الوقت الحاضر، ولاشك أن ما أحرزه العلم من تقدم يرجع إلى ما حدث من تطور فى مناهج البحث وأدواته وعلى ذلك فإن المنهج لا يقل أهمية ولا قدرا من النظرية أو القانون فى المجال العلمى، وجدير بالملاحظة أن ما أحرزه علم النفس الحديث من تقدم إنما يرجع إلى انتهاجه المنهج العلمى وخاصة فى عمليات التشخيص وتطبيق تقنيات القياس النفسى والتربوى واستخدام منهج الملاحظة بأنواعها.

تطور علم النفس :

لقد تطور الفكر السيكولوجى حيث تحرر من سيطرة الخرافة والشعوذة والدجل والأوهام، فلقد أتى حين من الدهر كانت الأمراض العقلية والنفسية التى تصيب الإنسان تنسب إلى مس من الجن والشياطين أو الأرواح الشريرة التى كان يعتقد أنها تلبس جسد الإنسان، وكان الإنسان يعتقد فى القديم أن ما يصيبه من الأذى يرجع إلى غضب الآلهة أو إلى سخط الطبيعة وثورتها عليه، ولقد

تحول الفكر السيكلوجى من ذلك إلى الفكر الفلسفى وظلت الموضوعات النفسية تدرس فى إطار الفلسفة التى كانت تضم جميع العلوم ومن ثم كان يطلق عليها «أم العلوم» . كانت الموضوعات والظواهر النفسية تدرس بالمنهج الفلسفى ومؤداه التأمل والنظر ثم تحول الفكر السيكلوجى إلى المنهج العلمى الموضوعى وذلك استعار علم النفس من العلوم الطبيعية المناهج التى تستخدمها وقوامها الملاحظة والتجربة والموضوعية. واستخدم علم النفس الرياضة أو الاحصاء لغة فى وصف معطياته وفى استخلاص النتائج والحقائق والقوانين والنظريات. ومن هنا أقيمت معامل علم النفس ومختبراته وتم وضع العديد من الاختبارات والمقاييس وتم تصميم مئات الأجهزة والأدوات التى تستخدم فى قياس قوى الإنسان وأمراضه قياسا كيميا رقميا .

لقد استمد علم النفس الحديث خاصية العلم من انتهاجه المنهج العلمى ولذلك أصبح علم النفس الحديث يقف فى مصاف العلوم الطبيعية الأخرى كعلم الطب وعلم وظائف الأعضاء وعلم التشريح وعلم الحياة، وإن كنا لا ننكر أن الظواهر التى يتصدى علم النفس لدراستها أكثر صعوبة وأكثر غموضا وأكثر تعقيدا وأكثر تأثيرا بالعوامل الذاتية سراء باعتبارها نابعة من الإنسان الذى تتولى دراسته فهى خبرة ذاتية شخصية أو بحكم تأثيرها بالعوامل الذاتية لدى من يقوم بدراسنها . بل إنها أكثر صعوبة لأنها، فى كثير من الأحيان، عوامل عاطفة الإنسان واتجاهاته وميوله ومشاعره وآلامه

الداخلية، ولذلك كان الجدل يثار حول إمكانية القياس الكمي لأمر معنوي. ولقد تغلب علم النفس على هذه المعضلة بأن ترك مفاهيمه وتصورات المعنوية أو المجردة تركها ودرس أثارها أو نتائجها أو علاماتها كما تظهر في «سلوك» الإنسان وبذلك نجح علم النفس في دراسة ظواهر أو مفاهيم مجردة مثل الذكاء أو التعلم أو الإدراك والقدرات الدالة على ذلك ، درسها بطريقة غير مباشرة وذلك عن طريق دراسة السلوك الذي يدل عليها والذي يفترض أن القدرة تكمن وراء هذا السلوك، ومن هنا كان القول بأن الذكاء مثلاً «مفهوم افتراضى» بمعنى أنه لا يوجد بصورة مشخصة ولا يخضع للملاحظة أو التجريب أو القياس باعتباره جوهرًا مجردًا ومعنويًا وإنما هو مفهوم نحن الذين نفترض وجوده افتراضًا وذلك من ملاحظة مجموعة من مظاهر السلوك «الذكي» أو من ملاحظة عينة ممثلة للسلوك الذكي . ومن هنا تخلص علماء النفس من الصعوبة التي كانت تواجههم إزاء تعريف الذكاء أو تحديد مفهومه تعريفًا جامعا مانعا وإنما اكتفوا بتعريفه «تعريفًا إجرائيًا» فحواه أن الذكاء هو ما تقيسه اختبارات الذكاء ومن التأمل في فحوى هذه الاختبارات والتعرف على مضمونها نجد أنها تتضمن عينات من القدرة على التفكير والاستدلال والاستنباط والنقد والحكم والمقارنة والإدراك والتصور والتخيل والمقارنة والتحليل والتركيب والتعلم والتذكر وحل المشكلات والتكيف للمواقف الجديدة وإقامة علاقات اجتماعية إيجابية مع الغير والقدرة على الخلق والإبداع والابتكار .

تنوع طرق البحث المستخدمة في علم النفس الحديث :

على الرغم من أن علم النفس الحديث قد انتهج منهج العلوم الطبيعية في دراسة الظواهر النفسية كالقدرات أو السمات أو الاستعدادات أو الأمراض، إلا أنه لا يوجد منهج واحد يستخدمه جميع علماء النفس وإنما هناك مناهج متعددة أو مداخل مختلفة في دراسة السلوك الإنساني، وما يزال الباحث السيكلوجي يتصدى لدراسة ظواهره وهو متأثر بالخلفية العلمية أو التراث العلمى الذى يؤمن به كالاتجاه التحليلى أو السلوكى أو الاكينيكي أو الطبي. وهناك منهج يؤيده كاتب هذه السطور ويدعو إليه وهو استخدام أكثر من منهج فى دراسة الظاهرة والنظر إليها من منازير مختلفة أو من خلفيات متباينة. ومثل هذا المنهج يقدم لنا صورة أكثر تكاملا وشمولا للظاهرة المدروسة. فالمنهج الكمي وحده يعتمد على أرقام، والأرقام حقائق جامدة آلية صماء لابد للباحث السيكلوجى من استنتاجها ولابد من النظر إليها للتعرف على مدلولها وأثارها وتطبيقاتها ومعناها ووظيفتها النفسية والتربوية والأخلاقية والروحية والاجتماعية، أي لابد من النظر إليها وفقا لمنهج التحليل النفسى بنا يتضمنه من العمق والغموض فى أعماق النفس البشرية وسبر أغوارها وارتداد مجاهلها والتعرف على مكونات النفس الإنسانية وما تحويه من اللاشعور ومن الآمال والآلام والذكريات المنسية أو المكبوتة أو المترسبة فى أعماق اللاشعور والتعرف على صراعاتها

وأزماتها وعقدتها. النظر إلى كل هذه القوى الفاعلة فى الذات الإنسانية نظرة تكاملية تأخذ بعين الاعتبار ما تتسم به العلاقة بين قوى الذات الشعورية واللاشعورية وسمات الشخصية ومقوماتها وما يقوم بينها من «ديناميكية» بمعنى علاقة «التفاعل» القائمة بين عناصر الشخصية فيما بينها من ناحية وبين الشخصية الإنسانية باعتبارها كلا متكاملا متفاعلا وبين عناصر البيئة الخارجية المادية والاجتماعية. وتزداد الصورة وضوحا اذا ارتد الباحث إلى الوراء مهتديا بمبادئ المنهج التاريخى فدرس تاريخ الحالة وتعرف على ظروف الفرد منذ ميلاده حتى وقت اجراء الدراسة أو المعالجة، بل يفضل أن يرتد إلى ما هو أعمق من ذلك فيرتد إلى لحظة الاخصاب وظروف الحمل والانجاب ويدرس ما تعرضت له ألام الحامل من المؤثرات التي قد تترك بصماتها على شخصية الفرد .

فى ضوء ذلك نقول إن هناك عددا من المناهج النوعية التي تستخدم فى الحقل الاستيكولوجى سواء فى دراسة الظواهر أو فى الممارسة اليومية للأخصائى النفسى، من ذلك منهج الاستبطان أو التأمل الباطنى أو منهج وصف الذات، ثم هناك منهج الإسقاط والذي يعتمد على عملية الإسقاط وهى عملية عقلية لا شعورية يسقط الإنسان فيها مشاعره هو واتجاهاته وميوله على غيره من الناس والأحداث والأشياء، ثم هناك المنهج الوصفى ويهتم بوصف الظاهرة النفسية، والمنهج التاريخى ويهتم بدراسة تاريخ الإنسان أو تاريخ المرض وهناك منهج التحليل النفسى والذي يستهدف الكشف عن

محتويات اللاشعور، ثم هناك المنهج الاكلينيكى ويتضمن استخدام الخبرة المهنية العامة فى تشخيص الأمراض ووصفها، وهناك المنهج العلمى أو الموضوعى أو التجريبي، ومن التقنيات المستخدمة فيعلم النفس، وهى كثيرة أيضا، التجربة والملاحظة والمقابلة الشخصية والقياس، ويستخدم القياس فى المكان المناسب أى ذلك الذى يتفق مع ما لديه من قدرات واستعدادات وميول واتجاهات ومعارف وخبرات ومهارات وسمات شخصية. كما يستخدم القياس فى المجال المهنى أو مجالات العمل والعمال أو مجالات التوظيف بغية وضع الرجل المناسب فى المكان المناسب كما يستخدم القياس فى المجالالعسكرى وف مجالات قياس الرأى العام وفى المجال الطبى أو الاكلينيكى لعمل التشخيص الحالة المعروضة بمعنى معرفة كم وكيف المرض أو الاضطراب. ويستخدم القياس فى مجال البحوث العلمية للتحقق من صدق الفروض أو بطلانها كالتعرف على ما هو روائى وما هو مكتسب، والتعرف على ما قد يوجد بين الأفراد أو الاجناس أو الأنواع من فروق .

ومن الأمور الجديرة بالتمييز ما يعرف فى الدراسات النفسية «بالمنهج الطولى» و«المنهج العرضى أو المستعرض» فى دراسة ظواهر نفسية مثل النمو. فما الذى نقصده بالمنهج المتعرض؟ إذا أراد باحث أن يتعرف على ما يحدث من تطور فى اتجاهات الراهقين نحو المرأة مثلا مقارنة باتجاهات الشباب نحوها فى هذه الحالة، ووفقا للمنهج المستعرض ، فإنه يأتى بمجموعات من الشباب

والمراهقين من أرباب أعمار مختلفة وقيس اتجاهاتهم جميعاً في وقت واحد، فإذا وجد فروقاً بين اتجاهات الشباب والمراهقين، أرجع ذلك إلى عامل العمر وما يصاحبه من النضج. ولكن يعاب على هذه الطريقة أن هذا الفرق لا يرجع إلى عامل النضج في ذاته، فعندما نقارن الآن بين اتجاهات طفل في سن العاشرة واتجاهات شاب في سن العشرين، فإننا ننسى أن الشاب قد عاش لمدة عشر سنوات في ظروف ثقافية وحضارية واجتماعية واقتصادية وسياسية مختلفة عن تلك التي عاشها طفل العاشرة، ولذلك قد يرجع الفرق الملاحظ إلى الظروف الثقافية وليس إلى عامل العمر أو السن في ذاته على كل حال يمتاز المنهج المستعرض بالسرعة وقلة التكلفة وهو اقتصادي في الجهد والوقت والمال وفيه لانقصد أياً من أفراد عينات البحث .

أما المنهج الثاني وهو ما يعرف باسم «المنهج الطولي» أو المنهج التتبعي، وفيه يتتبع الباحث نفس الفرد أو الأفراد أو الأشخاص هم بعينهم يتتبعهم عبر سنوات عمرهم أو مراحل نموهم، فيدرس مثل الذكاء أو العبقرية عند مجموعة من الأطفال، ويظل يعاود قياس ذكائهم وهم في سن الخامسة فالعاشرة وسن الخامسة عشر فالعشرين حتى يصلوا مثلاً إلى سن الستين، ليتعرف على ما قد يطرأ على ذكائهم أو نبوغهم أو تفوقهم عبر مراحل العمر المختلفة ولكن ما الذي يعيب هذا المنهج؟

يعيب هذا المنهج فقدان بعض أفراد العينة بالموت أو بالهجرة أو برفض إجراء التجربة عليهم كذلك قد يموت الباحث نون أن يستكمل

بحثه. ويستغرق هذا المنهج وقتا وجهدا كبيرين وبالتالي تهبط تكاليفه.

طرق اختيار العينات فى البحوث النفسية :

علم النفس، كغيره من العلوم الطبيعية، يعتمد على العموميات وليس على الحالات الفردية، ولذلك يعتد بالدراسة التي جرى إلى شخص واحد، وإنما لابد وأن يجرى الباحث السيكلوجى تجاربه أو قياساته على مجموعة كبيرة نسبيا من الأفراد وذلك حتى يمكن الاطمئنان إلى تعميم ما يحصل عليه من نتائج، ويشترط فى العينة الصالحة فى البحث الجيد أن تكون مختارة اختيارا عشوائيا أى دون تحيز الباحث فى اختيار أفرادها من بين أبناء مجتمع معين. كأن يأخذ الباحث أفراد عينته من أبناء مدرسة واحدة أو من حى واحد أو ممن ترد اسماءهم فى دليل التليفونات، ذلك لأنه ليس من الضرورى أن يتضمن هذا الدليل جميع أبناء المجتمع، ولذلك يلجأ الباحث إلى الاختيار العشوائى لأخذ عينة من بين أبناء مجتمعه الأسمى، وتعنى العشوائية من بين ما تعنى ألا يعتمد الباحث اختيار أفراد بعينهم وترك سواهم كما تعنى أن يكون لكل فرد من أفراد المجتمع الأسمى فرصة متساوية فى أن يصبح من بين أفراد العينة المختارة للدراسة ومن أساليب تحقيق العشوائية أن يضع الباحث اسماء جميع أفراد أو كل مائة فرد حسب حجم العينة المسموح به فى الدراسة وحسب الإمكانيات المتوفرة للباحث . ويشترط فى العينة كذلك أن تكون ممثلة تمثيلا جيدا لمجتمعها الأسمى وعلى ذلك تتضمن عينة البحث أفرادا

من الكبار والصغار، من الذكور والإناث، من المتعلمين وغيرهم، من أرباب المستويات الاقتصادية العليا والدنيا، من الأحياء الراقية والمدنية وهكذا .

وفيما يلي نسوق عرضاً نقدياً لأهم مناهج البحث عن النفس :

١- الاستبطان

كان علماء النفس قديماً يتبعون منهج التأمل الذاتى أو التأمل الباطنى أو الاستبطان Introspection ويقصد بالاستبطان تأمل الحالات الشعورية الداخلية التى يشعر بها الفرد، وتتراوح عملية الاستبطان بين التأمل البسيط أو الوصف البسيط لما نشعر به فى حياتنا اليومية، كما يحدث عندما نصف للطبيب ما نشعر به من ألم، وبين التفكير العميق فى أحوال الفرد الذاتية ومشاعره الداخلية وتحليلها ومعرفة أسبابها ونتائجها، وواضح أن هذا المنهج يعتريه النقص من جوانب متعددة نذكر منها ما يلى^(١) :

١- فى أثناء عملية الاستبطان أو التأمل الداخلى، ينقسم الفرد إلى مُلاحظ، ومُلاحظ فهو نفسه الذى يقوم بملاحظة نفسه وتسجيل ما يشعر به، وهذا يؤدى إلى تغيير الحالة النفسية التى يريد تأويلها وتحليلها. فعندما ينصرف الإنسان لتأمل حالة الغضب التى يشعر بها مثلاً، فإن ذلك يخفف من حدة انفعال الغضب عنده فملاحظة الحالة الشعورية ومحاولة وصفها وتحليلها لا يمكن أن تحدث بدقة فى

(١) عبد الرحمن العيسوى، دراسات سيكلولوجية دار المعارف ١٩٨١ ص ١٧.

أثناء الحالة نفسها .

٢- لاشك أن الحالات النفسية الشعورية معقدة من ناحية ومن ناحية أخرى سريعة التغير والزوال، وعلى ذلك فلا يمكن ملاحظتها ملاحظة ذاتية أو وصفها وصفا دقيقا .

٣- أن هذا المنهج يقوم على أساس الملاحظة الذاتية أي ملاحظة الفرد لذاته فقط، وعلى ذلك فلا يمكن أن يشترك معه غيره ومن ثم فلا تصلح هذه الطريقة للبحث العلمى الذى يقوم على أساس الموضوعية والعمومية وعلى ذلك فلا يمكن أن يتحقق باحث آخر من صدق الظواهر النفسية التى يمر بها الفرد فما يمدنا به الاستبطان من معلومات، حتى أن كانت صادقة، فإنها لاتصرف إلا على صاحبها فقط وليس من الضرورى أن تكون عامة ومشتركة بين جميع الناس، والعلم الحديث يقوم على أساس اكتشاف القوانين العامة التى تفسر السلوك عند كافة الناس.

٤- لما كان هذا المنهج يقوم أساس تحليل الفرد لذاته، ووصفها فإنه يتأثر بميول الفرد واتجاهاته وأهدافه ونزواته الشخصية وتعصباته وتحيزاته، ومن المعروف أن - هذه الميول الشخصية تؤثر حتى فى إدراكنا للعالم الخارجى، أما تأثيرها على وصف الإنسان لنفسه فإنه أكثر عمقا لأن الإنسان دائما يتحيز لنفسه ولا يوجه اللوم إلى نفسه بل أنه يخفى على نفسه المشاعر والميول التى تعافها نفسه ولا يجب أن يصارح نفسه بنفسه بالأمور التى يخجل منها أو التى تظهره بمظهر غير خلقى أو غير اجتماعى ويسعى إلى إظهار نفسه

فى صورة براءة مشرقة .

هـ- إن منهج الاستبطان الذى يعتمد على وصف الفرد لذاته لا يصلح فى دراسة الأطفال الصغار أو الحيوانات أو الصم والبكم أو الأجانب الذين لا يستطيعون التعبير اللغوى عن مشاعرهم. ورغم وجود نواحى الضعف هذه فى منهج الاستبطان، إلا أنه يفيد فى دراسة كثير من الحالات، حتى فى علم النفس التجريبى، فالباحث يسأل الشخص الذى يجرى عليه التجربة لكى يصف له ما يشعر به أو ما يراه أو ما يسمعه، كذلك فإن الاختبارات التى يستخدمها الباحث لقياس سمات الشخصية تعتمد على ما يعطيه الفرد من معلومات عن نفسه عن طريق الاستبطان، فقد يسأل الباحث الفرد: هل تشعر بالخجل عندما يكون عليك أن تلتقى بأناس لأول مرة؟ وهل تفكر فى المستقبل كثيرا؟ هل تهتم كثيرا بأراء الآخرين فيك؟ هل يزعجك نقد الناس لك؟ كذلك فإن الاستبطان ما زال هو المنهج الممكن الوحيد لدراسة كثير من الظواهر النفسية كالشعور والأحلام وغير ذلك من الخبرات الشعورية الذاتية . هذا من ناحية ومن ناحية أخرى فإن الاعتماد على السلوك الظاهرى فقط قد يكون مضللا ومخالفا للحقيقة التى يشعر بها الفرد، فالسلوك الذى يأتى الفرد ليس دليلا على وجود ميل حقيقى لدى الفرد نحو هذا السلوك، فإن العوامل الاجتماعية قد تضطر الفرد إلى إتيان لبعض مظاهر السلوك التى لا تتفق مع رغباته فقد يقدم لك صديقك لونا لاتحبه من الطعام على مائدته، وقد تضطر إلى تناوله تمشيا مع الموقف، كذلك قد يسلك

الفرد سلوكا يدل فى ظاهرة على الكرم بينما الدافع الحقيقى حسب الشهرة. ومهما يكن من قيمة المنهج الاستبطانى الذاتى، فإن علماء النفس فكروا فى مناهج أخرى أكثر دقة ولذلك لجأ البعض إلى استخدام ما يسمى بالمنهج الإسقاطى .

ب- المنهج الإسقاطى

يقصد بلفظ «الإسقاط» Projection فى علم النفس أن يسقط أو أن يفرغ الفرد ما يشعر به هو على غيره من الناس، وأن يترجم ويفسر سلوكهم بالرجوع إلى خبراته الذاتية هو، فيرى الناس من زاويته هو وعلى ذلك فالمنهج الإسقاطى يتلخص فى قيام الباحث بملاحظة سلوك الإنسان أو الحيوان ثم تفسير هذا السلوك على أساس الخبرة النفسية للباحث نفسه تلك التى سبق أن خبرها هو فى مثل هذا الموقف السلوكى وعلى ذلك فإذا رأيت شخصا يبكى استنتجت أنه حزين، وإذا رأيت شخصا يصول ويجول فى وسط الحجرة استنتجت أنه قلق وهكذا. ويعنى ذلك أننا نفترض أن أحوالنا النفسية تشابه الأحوال النفسية التى يخبرها الغير وذلك فى الظروف المتشابهة ومما يؤخذ على هذا المنهج القول بأنه يندر أن تتفق الظروف الجسمية والنفسية والعقلية لفرد ما مع فرد آخر، بحيث يمكن أن يسقط أحدهما مشاعره على الآخر وبحيث يصدق هذا الإسقاط. والواضح أن مثل هذا المنهج لا يصلح فى دراسة الحيوانات والأطفال وأبناء المجتمعات البدائية، التى تبعد المشقة بيننا وبينهم من حيث التكوين الشخصى والنمط الحضارى هذا ولا يخفى أن السوك

الظاهرى overt behaviour قد يكون مجرد تضليل وتمويه لما يشعر به الفرد حقيقة فمظاهر الكرم قد تكون لنيل المكاسب الشخصية أو لتغطية ميل شديد للشح والبخل، فالسلوك الخارجى الظاهرى ليس دليلا حقيقيا فى جميع الأحوال على الحقيقة الداخلية للفرد. تفاديا لهذه العيوب التى يعانى منها منهاج الاستبطان والاسقاط اتجه علم النفس الحديث نحو انتهاج مناهج العلوم الطبيعية الحديثة وسار على نفس الأسس العلمية والموضوعية التى تسير عليها هذه العلوم والتى وصلت بفضلها إلى نتائج باهرة .

ج- المنهج العلمى الموضوعى

يستهدف المنهج العلمى Scientific Method الموضوعى فى علم النفس دراسة الظواهر النفسية أو الظواهر السلوكية دون أن يسقط الباحث عليها حالاته الذاتية، فلا يتأثر بحثه بميوله واتجاهاته وأرائه وتعصباته أو تحيزاته بل يسجل الوقائع كما هى فى الواقع بعيدا عن ذاته. فعند دراسة تطور لعب الأطفال مثلا فإن الباحث ينسلخ بنفسه بعيدا عن الموقف، ويصف ويسجل كل ما يلاحظه وصفا دقيقا موضوعيا وكذلك الحال عندما يقوم الباحث بدراسة ظاهرة السلوك الإجرامى مثلا عند جماعة من الأفراد، فإنه لا يصدر أحكاما خلقية نابعة عن رأيه الشخصى فى مثل هذا السلوك ولكنه يسجله ويحاول تفسيره بالاستناد إلى الحقائق التى حصل عليها. وجدير بالذكر أن تطبيق المنهج العلمى فى علم النفس ليس عملا ميسورا ذلك لأن طبيعة الموضوعات التى يدرسها علم النفس

تختلف اختلافا بينا عن طبيعة الموضوعات التى تدرسها العلوم الطبيعية، فالسلوك الذى يدرسه علم النفس يعد ظاهرة معقدة Complex phenomenon تتدخل فيها عوامل معقدة نفسية وعقلية وجسمية واجتماعية ومادية. ومن الصعوبة بمكان دراسة أثر أى من هذه العوامل مستقلا عن غيره من العوامل الأخرى، ذلك لأن عزل هذه العوامل يعتبر عملية بالغة الصعوبة ويكفى أن نتأمل أى عينة من سلوك فرد ما فى موقف ما لكى نتبين مدى تداخل العديد من العوامل المتشابكة، فإذا ما تصورنا طالبا يؤدى الامتحان فى مادة علم النفس مثلا فإننا نلمس العديد من العوامل التى تؤثر على أدائه ومستواه فى هذا الموقف ومنها ما يلى :

- ١- مستوى ذكائه.
- ٢- مقدار ما حصله من معلومات فى مادة علم النفس
- ٣- ميله نحو هذا العلم ومقدار اهتمامه به .
- ٤- ما يوجد لديه من دوافع ورغبات فى اجتياز هذا الامتحان .
- ٥- قدرته على التفكير فى حل المشكلات النفسية .
- ٦- حالته النفسية والمزاجية والجسمية أثناء أداء الامتحان .
- ٧- سنه ومستوى نضجه العام.
- ٨- الظروف المادية المحيطة به أثناء الامتحان من حرارة ورطوبة وضوضاء وتهوية وبرودة وإضاءة .
- ٩- ما يوجد فى الموقف من علاقات اجتماعية بينه وبين المحيطين به من زملاء ومشرقيين فإذا أراد الباحث معرفة أثر أى من هذه

العوامل على أداء الطالب ويجب عليه أن يعد تجربة بحيث يثبت بقية العوامل أو يضبطها Control ثم يدرس هذا العامل وحده ويترك الحرية لهذا العامل وحده لكي يتغير .

فإذا أردنا معرفة أثر الذكاء Intelligence مثلا في القدرة على التحصيل في مادة علم النفس، فإننا نأتي بمجموعتين من الطلاب احدهما تتمتع بمستوى عال من الذكاء والأخرى مستواها منخفض بشرط أن تتساويا في العوامل الأخرى كالسن والجنس والبيئة الاجتماعية ونوع المدرسة وطرق التدريس والظروف الجسمية والصحية ومقدار ميولهم نحو هذا العلم .. ثم نكلف كلا من المجموعتين بتعلم قدر واحد من المواد النفسية وبعد فترة من الزمن نقيس تحصيل كل من المجموعتين، ونقارن بينهما فإذا حصلنا على أي فرق ذي دلالة إحصائية فلا بد إذن أن يكون مرجعه هو الفارق في مستوى الذكاء وجددير بالذكر أن المنهج العلمى فى مثل هذه التجارب يتطلب أن تجرى التجربة على عدد كبير من الأفراد وأن تتكرر أكثر من مرة حتى يمكن الثقة فيما تعطى من نتائج وأن تكون العينة ممثلة تمثيلا حقيقيا للمجتمع الأصلي وإلى جانب الصعوبة فى عزل العوامل المختلفة المحيطة بالسلوك والمسئولة عنه، فإن السلوك نفسه يختلف عن الموضوعات المادية المحسوسة التى تدرسها العلوم الطبيعية، فقياس الطول أو العرض يختلف عن قياس الشعور .

ولقد اتخذ علم النفس، إلى جانب المنهج التجريبي والموضوعي، اتخذ من علم الاحصاء statistics وسيلة مبتكرة لمعالجة ما يحصل

عليه من نتائج فأصبح يعرف المتوسطات الحسابية Means لمجموعات مختلفة من الأفراد فى القدرات التحصيلية والمعرفية وغيرها، وهكذا أصبح علم النفس يستخدم لغة الرياضه والاحصاء فى عرض البيانات واستخلاص النتائج كذلك أصبح لعلم النفس الحديث معامل مزودة بأجهزة لقياس حدة السمع والأبصار والإدراك ودقات القلب وسرعة التنفس وهكذا كذلك أصبح علم النفس يعتمد على المقاييس العقلية mental meusurie المختلفة والاختبارات الدقيقة التى تقيس الذكاء والقدرات والمهارات وسمات الشخصية المختلفة كالخجل والانطواء والعنوان والتعاون والطموح والقلق والخوف وغير ذلك وهناك نماذج حية من التجارب العملية فى دراسة عملية التعلم. وعلى العموم يعتمد المنهج العلمى على دعامتين أساسيتين هما الملاحظة والتجربة Experiment and observation فيلاحظ الباحث الظاهرة ملاحظة دقيقة ويسجل ما يرى كما يصمم التجارب التى تساعد على ملاحظة السلوك فى مواقف مضبوطة تشبه المواقف الطبيعية، ويتضمن المنهج التجريبي اتباع الخطوات الآتية :

١- الملاحظة الدقيقة المقصودة حيث يلاحظ الباحث الظاهرة ويسجلها كما يلاحظ الباحث هبوط الامطار أو هبوب الرياح أو سلوك التلاميذ فى فناء المدرسة .

٢- تحديد المشكلة تحديدا دقيقا، ويتضمن ذلك وصفها وتعريفها، فقد يحدد الباحث المشكلة فى تأخر الطالب فى التحصيل فى مادة ما

أو انحراف جماعة من الصبية .

٣- جمع البيانات والأدلة والشواهد والمعلومات الخاصة بالمشكلة وإجراء التجارب وغير ذلك من وسائل الحصول على المعلومات .

٤- وضع الفروض أو الحلول Hypotheses الممكنة لحل المشكلة على أن يكون وضع هذه الفروض قائما على أساس منطقي معقول كما ينبغي أن تكون محددة المعنى بحيث يكون إخضاعها للتجريب والقياس ممكنا .

٥- اختبار صحة الفروض أو الحلول أو التحقق من صحتها verification وذلك عن طريق ما تمدنا به التجربة أو ما نحصل عليه من معلومات، فيتناول الباحث الفروض فرضا فرضا بالفحص، فإذا أيدت التجربة الفرض أصبح نظرية عامة أو قانونا مقبولا لتفسير وحل المشكلة، وإذا اختلفت نتائج التجربة مع الفرض حذف الفرض أو عدل بحيث يتفق مع نتائج التجربة التي ينبغي أن تكون لها الكلمة الأخيرة في هذه المرحلة بالذات ينبغي أن يتسم فكر الباحث بالمرونة وعدم التشبث أو التعصب لما يضع من فروض أولية بل يجب أن يكون مستعدا لحذف وتعديل وتغيير جميع فروضه ووضع غيرها وجليد بالذكر أن المنهج العلمى لا يقوم على التجريب وحده وإنما هو فى جوهره يعتمد على التفكير المنطقى السليم وعلى أن يستخدم التجريب كوسيلة للحصول على المعلومات الدقيقة^(١) . على

(١) دكتور عبد الرحمن محمد عيسى - دراسات سيكولوجية - من ص ١٧ إلى ص ٢٤ .

أن هذه المناهج لاتخلو من النقد.

د- المنهج الكيفى فى الحقل السيكلوجى

لقد أثار الدكتور على عبد المنعطى اعجابى لما قرره من أهمية المنهج الكيفى وعدم تقديس «المناهج الكمية» المتمثلة فى الأرقام والأعداد والاحصاءات^(١) . وأضـم صوتى المتواضع إلى ما ذهب إليه د. على عبد المعطى حين أشار إلى انطباق دعواه الفكرية والمنهجية هنا على البحوث والدراسات والممارسات المهنية السيكلوجية، ولكننى أبادر إلى القول بأن ذلك لايـعنى إطلاقا هجرة الأساليب الكمية المتمثلة فى القياس والتجريب وتقدير الظواهر النفسية تقديرا كـميا من خلال تطبيق الاختبارات والمقاييس واستخدام الاجهزة العملية والمقابلات الشخصية المضبوطة أو المقننة والمسلحة بالآلات من خلال الملاحظة العلمية، ولكننى اقصد أن الأرقام ليست خاتمة المطاف، وأنها ليست مقدسة فى ذاتها بل إنها قد لاتكون معبرة فى بعض الحالات ،عن جوهر الحقيقة وقد تكون مضللة ولاتصف الواقع الفعلى.

ولعل أبسط مثال عملى يؤكد ذلك هو تأثير قيم المتوسطات الحسابية التى يفرض فيها أنها تمثل المجموعة المأخوذة عنها، تتأثر هذه المتوسطات «بالقيم المتطرفة سلبا وإيجابا» فإذا كان الدخل الشهـرى لمعظم أفراد مجموعة من الناس «مائة» جنيه مثلا وكان بينهم قلة بسيطة يتجاوز دخلها «المليون» جنيه، لأصبح المتوسط

(١) أنظر (ورقة العمل) فى بداية الكتاب .

مرتفعاً جداً بما يخالف الواقع ويخفيه عن عين الباحث، وبالمثل اذا كان لدينا مجموعة معظم أفرادها يتراوح متوسط دخلهم الشهري حول ثلاثمائة جنيهها، وكان من بينهم نفر قليل جداً لا يصل دخله إلى ٥٠ جنيهها، لأدى ذلك إلى انخفاض قيمة المتوسط الحسابى بما يخالف الواقع، الأرقام إذن ليست مقدسة فى ذاتها ، وليس لها معنى محدداً واحداً فى جميع الحالات، إنما هناك أمور نسبية تختص بكل حالة على حدة لابد إذن من استخدام المنهج الكمى، ولكن لابد وأن يسبقه أو يصاحبه أو يتبعه أن يعمل السيكولوجى أو الباحث فى مجال علم النفس فكره وحسه وأن يتأمل الأرقام ويعرف مدلولها ووظيفتها ومغزاها وفحواها واتجاهها وما ترمز إليه، وأن يقرأ ما بين السطور ولا بد كذلك أن يعرف المصدر أو السبب الذى أدى لوجود فروق رقمية أو كمية بين جماعة من الناس وجماعة أخرى ولانقول أنه يعمل فكره بطريقة ذاتية صرفه وطلبة حرة وشخصية، بحيث يصبغ العمل العلمى بأهوائه وميوله وتحيزاته وتعصباته وشطحاته ورغباته الذاتية الصرفة ويغفل الطبيعة التى هى كتاب مفتوح أمام الباحث ويمكن فى داره على وصفها وهو لم يبرح مكانه، ولكننا نقول يعمل خبرته المهنية أو الاكاديمية أو النفسية، يعمل بصيرته واستصباره السيكولوجى وفهمه وذوقه للحالة فى ضوء خبراته السابقة وفى ضوء ما يحفل به التراث العلمى وفى ضوء ظروف وملابسات وتاريخ حياة الحالة وإذا كنا نؤمن بقول إدوارد ثورنديك عالم النفس السيكولوجى الأمريكى « بأن كل ما يوجد، يوجد بمقدار، وما يوجد بمقدار يمكن قياسه» وتلك العبارة التى قالها فى الرد على مفكرى القياس فى الأمور المعنوية والذين كانوا يقصرون على العلوم الطبيعية، إلا أننا

نقول إن هذه العبارة وإن كانت تبرز القياس الكمي والموضوعي، ولكنها لا تلغى إعمال فكر الباحث فيما يحصل عليه من معطيات كمية والنظر إليها في ضوء المفاهيم الكيفية والنسبية، وفي ضوء الخبرة وخاصة الخبرة العلاجية .

وقد كان من نتائج طغيان النزعة الكمية في البحوث النفسية أن تحولت ، على القليل نسبة من البحوث النفسية، إلى عمل آلي ميكانيكي «حرفي» يتمثل في استجلاب كمية من المعلومات من العقول الالكترونية ثم تطبيق عدد من المقاييس بصورة آلية ثم دس ما يحصل عليه الباحث في «قم» الكمبيوتر فيحصل على كميات هائلة من الأرقام والمعادلات التي لا يعي معناها في كثير من الأحيان، ولا يحسن توظيفها ولا تفسيرها ولا يعرف حتى كيف جاءت هذه المعطيات. وساعد ذلك في بعض الأحيان على «فبركة» الأبحاث واصطناعها وتزييفها ووضع جداول وأرقام من عندي الباحث وهو جالس في بيته دون أن يطالع الواقع الميداني. وغاب بذلك الصدق العلمي والأمانة العلمية والحس السيكلوجي في خضم كميات هائلة من الأرقام العمياء والصماء.. وهذا فيما يتعلق بالبحث السيكلوجي وإذا انتقلنا إلى صورة الممارسة المهنية في العلاج مثلاً أو في التشخيص لوجدنا أن هناك مساحة ضرورية لخبرة المعالج وبصيرته وفهمه واستيعابه للحالة المعروضة وتاريخ المرض والأسرة وما يزال علماء النفس والأطباء يعتمدون على المشاعر والعواطف والأحاسيس وغيرها من الأمور المعنوية والكيفية .

منهجية علم التفاوض الاجتماعي والسياسي

(رؤية إمبريقية)

د. حسن وجيه (*)

(*) كلية اللغات والترجمة ، جامعة الأزهر

إذا تحدثنا عن المنهجية فى ما أسميه بعلم التفاوض الاجتماعى والسياسى فلا بد وأن نذكر أولاً أن ظاهرة التفاوض قد نالت قدراً لا بأس به من التحليل من مناظير علوم اجتماعية عديدة وأهمها علم العلاقات الدولية وعلم الاجتماع السياسى وعلم الأجناس، ولكل من هذه العلوم أدوات ورؤيته المنهجية فى تحليل هذه الظاهرة المعقدة ولكن بتطور علم اللغويات وتشعبه وتداخله إلى حد الالتئام مع علوم اجتماعية أخرى ظهر إلى حيز الوجود العلمى علوم اللغويات الاجتماعية SOCIOLINGUISTICS واللغويات النفسية PSYCHOLINGUISTICS واللغويات العرقية ETHNO LINGUISTICS ولغويات الكمبيوتر/ الحاسوبية COMPUTATIONAL LINGUISTICS وكل هذه العلوم التمازجية / التكاملية الحديثة تعلن فى جوهرها عن مركزية اللغة ومركزية التحليل اللغوى المبريقى فى السياقات الاجتماعية والنفسية والعرقية والحاسوبية. وإذا كنت أتحدث عن علم التفاوض الاجتماعى والسياسى من خلال رؤية من منظور مركزية علم اللغويات الحديث فلعلنى أقدم رؤية تفصيلية لمشروع ومشروعية الالتئام بين العلوم الاجتماعية لتحليل ظاهرة التفاوض . ولعلنى أرصد هنا الدوافع والحاجة إلى الالتئام بين علم اللغويات بفروعه التمازجية الحديثة والعلوم السياسية وعلم العلاقات الدولية بوصفه أكثر العلوم اهتماماً بدراسة ظاهرة التفاوض ليشكل من خلال هذا الالتئام البداية نحو علم تمازجى حديث يمكن تسميته بعلم اللغويات

السياسية POLITICAL LINGUISTICS وهو ما اقترحه كاتب السطور فى رسالته للحصول على درجة الدكتوراه فى جامعة جورجتان (سنة ١٩٨٩) وليصب بدوره فى تشكيل علم التفاوض الاجتماعى والسياسى وتنقسم هذه الدراسة إلى أربع أقسام :

يوضح القسم الأول وجود فجوة على خريطة البحث الامبريقى الحالية فى علم العلاقات الدولية وأهمية وجوب ملء هذه الفجوة وارتباط ذلك الوثيق برؤية لفلسفة علم العلاقات الدولية. ويستعرض القسم الثانى بإيجاز البحث الامبريقى فى علم اللغويات والتعريف برؤية الباحثين فى علم اللغويات لقضية البحث الأمبريقى بصفة عامة وارتباطها بمراحل تطور علم اللغويات وترشيح أآخر تطورات تلك النوعية من البحث لملء الفراغ المشار إليه فى خريطة أبحاث علم العلاقات الدولية .

وبناء على ذلك يقدم القسم الثالث نموذجاً لتحليل ديناميكيات مطارحات القدرة فى المفاوضات السياسية الدولية مع التركيز على الأسئلة الخاصة بكيفية جمع البيانات (DATA) وإجراءات تحليلها ووحدات التحليل الأساسية والحاجة إلى مثل هذا النموذج الذى يقدم أول محاولة للربط بين مفاهيم مدرسة تحليل المطارحات بعلم اللغويات من ناحية ومفاهيم القدرة فى العلوم السياسية وعلم العلاقات الدولية من الناحية الأخرى ثم يقدم القسم الرابع الخاتمة ويحدد كذلك مجالات استخدام النموذج المقترح .

أولا: فجوات البحث الحالية فى علم العلاقات الدولية والمقصود
بالمنهج اللغوى فى تحليل المطارحات السياسية طبقا لهذه الدراسة؟
ومدى الحاجة إليه على المستوى الامبيريقى وارتباط ذلك بفلسفة
العلم:

إننا إذا ما بحثنا فى تعريفات علم العلاقات الدولية لوجدنا أن من
أهم الكلمات التى يتم تداولها فى معظم التعريفات الخاصة بهذا
العلم ومفاهيمه الأساسية هى كلمات التفاعلات "Interactions"
وأنماط التفاعلات "Patterns of Interactions" وعملية التفاعلات
"Process of Interaction"، الخ (انظر على سبيل المثال) هولستى
Holsti ١٩٨٨، آرون Aron ١٩٦٦، وديتش Duetsch ١٩٧٨،
فالعلاقات الدولية فى واقعها الحقيقى ما هى إلا سوى تفاعلات بين
الدول على كافة المستويات... واللغة فى هذا السياق هى وسيلة
التفكير والتخطيط والتنفيذ المتعلق بتلك التفاعلات وسياقاتها المختلفة
ومع ذلك فلقد كان دائما النظر إلى أمر اللغة على أنها أوتوماتيكية
ولم يتطرق إليها البحث بالتعمق المطلوب الذى يواكب دورها المركزى
والتعقيدات المصاحبة للأداء اللغوى فى سياق هذه التفاعلات الدولية
وهذا يمثل فجوة بحثية على خريطة أبحاث كل من العلوم السياسية
وعلم العلاقات الدولية حيث لا يوجد سوى أعمال قليلة جدا من قبل
علماء السياسة التى تناولت أمر علاقة اللغة بالممارسة السياسية ومن
أمثلة هذه الأعمال كتاب مايكل شابيرو "Shapiro" اللغة والفهم
السياسى ١٩٨١ وايدلمان Edelman "مجموعة كتبه السياسية

كأفعال ترميزية ١٩٧١، اللغة السياسية: الكلمات التي تنتج والسياسات التي تفشل ١٩٧٧ ومن أحدث أعماله في هذا الصدد : العلاقات بين اللغة لسياسي والسياسة الحقيقية ١٩٨٥. إن هذه الأعمال والتي تعبر عن توجهات علماء السياسة في هذا الصدد نزعت في استعراضها وتطرقها لموضوع تحليل اللغة في السياق السياسي إلى الجانب التنظيري ولم تعالج هذا الموضوع امبريقيا.. كذلك ركزت هذه الدراسات على دور محدود اللغة في السياق السياسي وعلى مناقشة الأمثلة اللغوية التي لم تتعد مستوى الكلمات والتعبيرات (Word & phrasal levels) وبالتالي يمكننا أن نصف معالجة علماء السياسة لهذا الموضوع بأنها معالجة استاتيكية

والجدير بالذكر في هذا السياق أيضا ما عرف بمدرسة تحليل الخطاب السياسي وأهم أعلام هذه المدرسة الفيلسوف الفرنسي ميشيل فوكو ١٩٦٧ "Michael Facucoult" وروتي ١٩٦٧ "Rorty" الذين يقترحون دراسة الأيديولوجية من خلال تحليل الخطاب السياسي. وفي العالم العربي نجد أن أهم الأعمال التي مثلت هذه المدرسة كتب الفيلسوف المغربي محمد عابد الجابري تحليل الخطاب العربي المعاصر (١٩٨٥) ، وتكون العقل العربي (١٩٨٤) وبنية العقل العربي (١٩٨٦) .

إلا أن هذه الدراسة هي الأخرى في واقعها مدرسة فلسفية تتخذ من علم الفلسفة منطلقها الأساسي للنظر إلى دور اللغة في سياق

النصوص السياسية وهي بعيدة كل البعد عن البحث الامبريقي. ولقد وصف السيد يسين كتابات الجابري كأحد الممثلين لهذه المدرسة فى سياق تعرضه لها بالتحليل فى مقالته «بحثا عن هوية جديدة للعلوم الاجتماعية فى الوطن العربى - الخطاب والأصولية المنهجية والاستراتيجية، قائلا :

«إن الجابري حين درس الخطاب العربى المعاصر قد ركز انتباهه على التناقضات بين الخطابات المختلفة ونادرا ما أشار إلى الممارسة وكان اهتمامه بمقياس عدم التناسق الداخلى أكثر من اهتمامه بتقويم التجربة المعيشة.. وأن الجدل بين الفكر والواقع والذي يعد أساسيا فى علم اجتماع المعرفة، يغيب كلية عن تحليلاته».

إن ما نستخلصه مما ذكرنا يقودنا إلى القول بأن أمر التحليل اللغوى فى السياق السياسى على مستوى العالم الغربى والعالم العربى، لايزال يكتفنه القصور الشديد، كذلك فإن التحليل اللغوى فى سياق التفاعلات الدولى والمستمد من البحث الامبريقي المستمد من دراسات ومفاهيم مدارس تحليل ديناميكيات أساليب التناول والتفاعلات طبقا لعلم اللغويات الحديث أمرا غير موجود ويمثل فجوة كبيرة وواضحة بجداول أبحاث العلاقات الدولية، إن أهمية الاستعانة بمثل هذه النوعية من التحليل تكمن فى معالجتها لأمر التفاعل الديناميكى داخل الثقافة الواحدة وعبر الثقافات مما يؤهل استخدامها فى تحليل جلسات المفاوضات والمواجهات الإعلامية من مناظرات وحملات دعائية أو حملات المعلومات والحملات المضادة إلى

غير ذلك من أمور إدارة الصراع ومحاولات حله أو تعقيده والتي تتسم بتركيبة ديناميكية معقدة.

إن أهمية وجوب استخدام المنهج اللغوى طبقا لهذه الدراسة لتحليل ديناميكيات التفاعلات يستمد شرعية خاصة من خلال آراء العديد من علماء السياسة والعلاقات الدولية من نوى الحساسية الخاصة لمركزية اللغة فى سياق التحليل السياسى وكذلك من خلال ارتباط ذلك بأمور حيوية تتعلق بفلسفة العلوم السياسية وعلم العلاقات الدولية .

ومن هنا تنشأ الحاجة إلى استخدام المنهج اللغوى الحديث فى تحليل المطارحات السياسية والذي سوف نعرض له تفصيلا فى القسمين الثانى والثالث من هذه الدراسة .

ثانيا: استعراض لتطورات توجهات البحث الامبريقى فى علم اللغويات :

لاشك أن هناك العديد من المسميات المتعلقة بمفاهيم البحث الامبريقى والتي تحتاج إلى توضيح حيث أن هذه المسميات فى كثير من الأحيان تكون موضع اختلاف بين الباحثين فى علوم اللغويات أو العلوم السياسية والعلوم الاجتماعية الأخرى أو محل خلاف بين الباحثين فى أحد هذه المجالات .

ولقد وجد الباحث أهمية توضيح المقصود بهذه المسميات من خلال محاولة وضعها فى الشكل الشمولى التالى والذي سوف يتم شرح مكوناته بقدر من التفصيل .

وفيما يلي وصف لعناصر الشكل رقم (١) :

(أ) المدرسة التاريخية (Historicism):

وهذه المدرسة تمثل أولى مراحل دراسة ظاهرة اللغة بطريقة علمية ولقد مهدت هذه المدرسة لظهور المدرسة الثانية (التركيبية) Structuralism وكان من رواد المدرسة التاريخية عالم اللغويات أوتو جيسبرسن (otto Jaspersen) الذى ذكر فى كتابه المهم اللغة، طبيعتها، تطورها وأصلها (١٩٢٢) أن الصفة الرئيسية المميزة للغة كظاهرة هى الصفة التاريخية وهذه الصفة تمكن الباحث من تعقب تاريخ اللغات ليوضح أسباب وعوامل استمرارها، تطورها أو انقطاعها وموتها وكذلك تأثيراتها المتبادلة مع اللغات الأخرى، وهذا التوجه يتيح لنا تفسير لماذا اللغة هى كما هى عليه الآن ؟

(ب) المدرسة التركيبية (Structuralism):

جاءت هذه المدرسة للوجود كرد فعل للمدرسة التاريخية وكان من روادها بلومفيلد "Blomfield" ودى سوسير "de Saussure" والذين ذهبوا إلى القول بأن وصف اللغة ليس من الضرورة أن يكون تاريخيا (Diachronic) (رأسيا) إنما يجب وأن يكون وصفها فى الأساس حالى (متزامن) synchronic (عرضيا) وهنا يكون الوصف تركيبى Structural قبل أن يكون سببى (causal) كما فى المدرسة التاريخية. وهذا التوجيه يتيح أيضا معالجة السؤال السابق وهو لماذا اللغة هى كما هى عليه الآن؟ فهذه المدرسة تعنى بالوصف التركيبى للغة ما وعلاقة ذلك بمفاهيم العالمية والخصوصية الثقافية

(Universalism & Relativism) .

هذا ولا تنكر هذ المدرسة صلاحية المدرسة التاريخية والتي
مازالت قائمة إلى الآن فيما يعرف بفرع علم اللغويات التاريخية
historical linguistics

(المزيد من التفصيل أنظر ليونز Lyons، ١٩٨١) .

ولقد تأثرت هذه المدرسة (التركيبية) بالمدرسة السلوكية
(Behavioral School) وركزت فى معرض تطورها على التوجه
الكمى الاستقرائى (quantitative inductive approach) الذى
يبدأ بملاحظة وتحليل البيانات (DATA) ثم تكوين الافتراضية
فالنظرية.. وكان ذلك بتحليل كم كبير من البيانات وعلى مستوى
وحدات لغوية أساسية صغيرة مثل الفونيمات (phonemes)
(أصغر وحدة صوتية).. والمورفيمات (Morphemes) (أصغر
وحدة صرفية) كذلك شهد المجال أسلوبا يماثل الأساليب المنتهجة فى
العلوم الطبيعية من خلال الدراسات الكمية الاحصائية وكتابة
القوانين والمعادلات وما إلى ذلك. وشاعت فى ذلك الوقت دراسات
مقارنات الأنظمة النحوية والصوتية للغات العالم المختلفة بغرض تعلم
اللغات وإتقانها فى أسرع وقت خاصة أثناء فترة الحرب العالمية
الثانية. ولزيد من التفصيل بخصوص دراسات التحليل المقارن
(Contrastive analyses) أنظر لادو (Lado) (١٩٥٧)،
(١٩٦٤) - لقد كان مفهوم الباحثين فى علم اللغويات فى هذه الفترة
يذهب إلى مساواة مفهوم الامبريقية (Empricism) بمفهوم العلم

(Science) من منطلق أن الحقائق المحسوسة والملموسة والمرئية من خلال تحليل البيانات هي فقط التي تمثل المنهج العلمي لدراسة اللغة إلى أن قدم توم تشومسكى فى مستهل الستينيات تقنيـدا لهذه المدرسة (التركيبية) السائدة وقدم نظريته الخاصة والتي عرفت بالنظرية النحوية التوليدية التحويلية عام ١٩٦٥ (Transfoemational Generative Syntax).

(ج) المدرسة التوليدية (Generativisim or innatism)

لقد أحدثت نظرية تشومسكى فى عالم اللغويات تغييرا جذريا تجاه البحث الامبريقى فنظريته استدلالية (Deductive) بدلا من أن تكون استقرائية (Inductine) كسابقتها وهذا يفيد بأن الافتراضات والنظريات ليس من الشرط أن تكون نتيجة تحليل البيانات ولكن من خيال العالم ثم تأتى بعد ذلك اختبارات هذه الافتراضات والنظريات، فمدرسة تشومسكى تذهب إلى القول بأن البدء بتحليل كم كبير من البيانات كما فى الطريقة الاستقرائية ليس هو الأمر الذى يجعل المجال علميا أم لا (sine qua non) وبذلك فإنه فى الوقت الذى يدعوننا فيه التوجه الامبريقى إلى أن أراءنا قد تكون خاطئة وليس علينا إلا نثبتها بالدليل.. أى نبدأ من منطلق التعبير الذى يقول «قد أكون مخطئا (I may be wrong) فإن المذهب العقلانى (أو مذهب المنطق المقبول mentalism or rationalism) الذى عبرت عنه مدرسة توم تشومسكى فهو يبدأ بالتعبير القائل «أنا أعرف الحقيقة، " I know the Truth " حيث

أنه لا توجد فى بعض الظواهر اللغوية تلك النوعية التى يقال عنها «إنها ملموسة» وتتعلق بعمليات ذهنية معقدة تسبب عملية الانتاج اللغوى .

ولقد سادت مدرسة تورم تشومسكى إلى أواخر الستينيات وأحدثت جدلا كبيرا ولكنها فى نفس الوقت أحدثت ثورة فى علم اللغويات وأوضحت بشكل اتسم بالتعقيد والدقة العلمية العلاقة بين النطاق الإدراكى واللغة وذهبت إلى القول بأن دراسة اللغة هى دراسة العقل الإنسانى، ولزید من التفصيل ارجع إلى كتاب تشومسكى العقل واللغة (١٩٦٨) ولقد كان من أهم ما تركته نظرية تشومسكى من أمور حيوية لم يوضحها البحث «الأمبريقى» الذى كان سائدا قبلها الآتى :

(أ) إن اللغة أكثر من مستوى تركيبى وأن هناك مستوى سطحى (Surface structure) وآخر عميق (Deep structure) وأن العلاقة بين المستويين تتسم بدرجات مختلفة من التعقيد ولقد أوضحت النظرية قواعد الربط بين المستويين بدقة وصرامة علمية كبيرة .
(ب) ان هناك قواعد للتحويل من تركيب لآخر .

(ج) ان معرفة القواعد تختلف عن عملية استخدامها وهذا ما أوضحته النظرية من خلال تعبيرى «الكفاءة» و«الأداء» (Competence & performance) وأن اهتمام البحث اللغوى يجب أن يركز فقط على «الكفاءة» لوضع تصور علمى مثالى يصف أنظمة القواعد على مستوى لغات العالم (الأمر الذى كان محل

نقد شديد من قبل المدرسة الرئيسية الثالثة التى سوف يلى ذكرها
والتي تركز على مفهوم «الأداء» فى المقام الأول) .
(د) إن الإنتاج اللغوى والإبداعية فى استخدامات اللغة تحكمه
قواعد أوضحتها النظرية .

لقد كان لهذه النظرية آثار كبيرة على فكر الباحثين اللغويين إلى
الآن وتمخضت عنها نظريات أخرى ولكنها ظلت تحت إطارها العام.
كذلك فلقد تأثرت بهذه النظرية عدة أنظمة أكاديمية أخرى على سبيل
المثال مجال «الذكاء الصناعى» (Artificial Intelligence) فى
علم الكمبيوتر، وكذلك تأثرت بهذه النظرية الدراسات المتمخضة عن
العلم الازواجى المعروف بعلم اللغويات السيكلوجية
(psycholinguistics) خاصة تلك الدراسات التى ركزت على
موضوع اكتساب اللغة (Language Acquisition).

ثم جاءت الفترة الرئيسية الثالثة، والتي نحن بصددنا الآن، فى
تطور المنهجية فى علم اللغويات لتشهد توجه مضاد ينتقل بعلم
للغويات من الإطار الذى وضعه تشومسكى والذى يركز فى تحليلاته
على التركيبات النحوية أساسا "syntactic structures" ومن
منطلق «استدلالي» إلى إطار معالجة مستويات أكبر تعالج مستويات
اللغة الكامنة والظاهرة والمختلفة معا من تركيبات معانى
"Semantic level" وتركيبات نحوية "Syntactic level"
وتركيبات فونولوجية (صوتية وظيفية من نبرات صوات إلى آخر) .
"phonolgoical level" منتقلة بذلك نحو معالجة أكبر فى

نطاق معالجاتها تصل إلى مستوى المطارحة بالكامل (Discourse level) من هنا اختلف تحليل المطارحات (discourse analysis) عن تحليل المضمون (content analysis) الذي يعالج «المحتوى الظاهر للاتصال فقط من خلال وصفه وصفا موضوعيا منتظما وكما» (برلسون ١٩٥٢) .

وكان هذا معناه التعامل مع وحدات لغوية أكبر من الجمل والفقرات ولقد شاهد علم اللغويات دراسات تراكمية كبيرة منذ السبعينيات إلى الآن في أطر هذه المدرسة الرئيسية الثالثة والتي قد يطلق عليها المدرسة البرجماتية (pragmativism) كذلك ظلت إلى الآن توجهات المدرستين السابقتين قائمة) .

واقد بدأت تظهر توجهات مختلفة في إطار الثالثة إلا أن هذه التوجهات قد أجمعت على نقد المدرستين السابقتين وكان من أعلام هذه المدرسة الثالثة والتي اهتمت بتحليل واقع المطارحات وليام لاف (Labov) روجر شاي (shuy) ، كمبرز (Gumperz)، شيف (Chafe)، وتنين (Tannen).

ولقد جمعت هذه المدرسة بين الاستراتيجية الاستقرائية والاستدلالية (Induction & deduction) فيما عرف بالاستراتيجية الدائرية "Abduction approach" .

ومنطلق بدء البحث طبقا لهذا المنهج هو تجنب الأمثلة الموضوعية أو المتصورة وهو ما قد يسمى بأمثلة الكرسي الهزاز (Rocking chair examples) فعلى سبيل المثال بدأ لاف وفانشيل

(Labov & Fanshel) (١٩٧٧)، بتحليل وحدات «أثر أفعال القول» (Speech Acts) فى سياق المقابلات العلاجية (thrapautic interviews) بين الأطباء والمرضى، وكانت نتائج هذا التحليل هامة فيما يتعلق بتركيبية ووظائف «أثر أفعال القول» وطرق تحليل هذه الوحدات والسبب يرجع إلى تحليل هذه الوحدات فى سياق طبيعى وحقيقى وليس من خلال الأمثلة المتصورة. فلم يبدأ لاف وفانشيل (على سبيل المثال) بفكرة أن معلوماتنا عن نظرية «أثر أفعال القول» (Speech act theory) قد تتقدم من خلال فحص وتحليل الاستخدام الحقيقى (الطبيعى) للغة ولكنهما قد بدءا بالمشكلة الخاصة بكيفية إسهام عملية التحليل اللغوى فى فهم أعمق لطبيعة المقابلة العلاجية بين الأطباء والمرضى. إن هذا التوجه الدائرى (Abduction) لقريب الصلة بمفهوم التركيبية الاجتماعية (Social constructivism) الذى يستند بدوره على أن الأشياء (objects) لا توجد فقط فى العقل (innatism) أو فى العالم (Empiricism) ولكنها على العكس من ذلك تتكون من خلال الأفعال المتعمدة للوعى. أى أن العملية تراكمية وهى لا تتركز فى الفرد كما كان شائعا ولكن هذه العملية تتركز فى تركيبة التفاعل الاجتماعى أساسا والتى يجب أن يدرس من خلال تفاعل الناس وليس من خلال الأمثلة المتصورة من عقل الإنسان (أنظر توميك وشاى، ١٩٨٧ Tomic & Shuy، وميهان ١٩٨٢ Mehane) .

إن من أهم منطلقات هذه المدرسة إذن هو المحاولة العملية

لملاحظة وتحليل ظواهر الأداء اللغوى فى السياقات المختلفة دون الارتباط المسبق بنظرية أو طريقة تحليل بعينها خاصة تلك الأساليب المستمدة من العلوم الطبيعية كما هو سائد فى الكثير من دراسات العلوم الاجتماعية بما فيها اللغويات وذلك من منطلق أن البحث العلمى وعملية التنظير الخاصة بالعلوم الاجتماعية وعلى وجه الخصوص المتعلقة بتحليل الأداء اللغوى تحتاج إلى السيطرة على عوامل أصعب وأعقد من العوامل التى تتم السيطرة عليها معمليا فى العلوم الطبيعية وكذلك الوضع فيما يتعلق بإيجاد فهم أعمق لإشكاليات الواقع .

وقبل أن تنتقل هذه الدراسة إلى جزئها الثالث نستعرض هنا الجزء الأخير من الشكل رقم (١) والخاص بالمفاهيم الخاصة بالبحث الامبريقى والمتداولة فى العلوم السياسية والعلوم الاجتماعية الأخرى الإمبريقية الاستدلالية، والأمبريقية الأولية، والأمبريقية الاستقرائية كما تفهم من بيرلسون وجارى Berlson & Gary ١٩٦٤، وفليرون ١٩٦٩ .

(أ) الامبريقية الاستدلالية Deductive Empiricism :

وهذه الاستراتيجية عبارة عن مجموعة من الافتراضيات المستمدة من مجموعة متداخلة عن النظريات، وعند التحقق من هذه الافتراضيات يتم التحقق من تلك النظريات التى استمدت منها (وبإيجاز فالأمر يتلخص من الحركة من تبنى موقف نظرى ما إلى تبنى موقف نظرى آخر) .

وهى ثلاثة أنواع :

النوع الأول : نظرية أمبريقية (Empirical theory)
(تستخدم فى سياق الاستكشاف والتحقيق) .

النوع الثانى : نموذج نظرى (Theoretical Model) مثل
نظرية (Game theory) المباراة .

النوع الثالث : نظرية مستمدة بطريقة أو بأخرى من الحدس
والتصور البديهى .

والنوع الثانى والثالث يستخدمان فى سياق الاستكشاف فقط
مثلهما فى ذلك مثل «الامبريقية الأولية، التالى ذكرها .

(ب) الامبريقية الأولية (Raw Empiricism) :

وتستخدم هذه الاستراتيجية فى البحث الذى لا يوجد له سوى
القليل جدا من الأدبيات وكذلك الافتراضيات القليلة الخاصة
بموضوع البحث .

ويتعامل الباحث فى هذا السياق (The Raw Empiricist)
مع البيانات (Data) دون أن يتعامل بعمق مع عملية تكوين
افتراضيات من الممكن التحقق منها عن طريق استدلالها من مجموعة
النظريات الصغيرة (Theorems) أو الفروض النظرية المتداخلة
(Interrelated postulates) ولكن على العكس من ذلك فإنه
«يفرق نفسه فى البيانات» أى يتعامل معها بالطريقة التى يريد
وبكثافة ليحدد ما هى خطوط الاتساق (Regularities) التى
سوف تظهر من جراء هذا النشاط ليرى ما هى التعميمات التى من

الممكن تكوينها عقب ذلك. وتستخدم هذه الاستراتيجية فى مجال الاستكشاف فقط .

(ج) الاستراتيجية الاميريكية الاستقرائية Inductive Emiricism

وهذه الاستراتيجية تحتل الموقع الوسط بين الاستراتيجيتين السابقتين وعادة ما تستخدم فى الأبحاث التى تتعرض لوجود نظريات متصارعة والغرض منها هو اختبار نصوص من هذه النظريات عن طريق تحليل البيانات (Data) والوصول إلى بيان متسق بشأن نقاط التصارع لمحاولة الاستفادة من هذه النظريات بطريقة متسقة وبدون تناقض .

وتستخدم هذه الاستراتيجية فى مجال التحقق فقط (Verification).

وقرار الباحث لاستخدام أى استراتيجية من الاستراتيجيات السابقة الذكر مرهون باعتبار مشكلة البحث وتوافر الأدبيات والأبحاث السابقة فيما يتعلق بموضوع البحث من عدم توافرها وكذلك بتوافر البيانات من عدمها ولمزيد من التفصيل أنظر فليرون Fleron وبييرلسون وجارى Berlson & Gary (١٩٦٤) .

ثالثا: النموذج المقترح لتحليل ديناميكيات مطارحات «القدرة» فى المفاوضات السياسية الدولية :

إن الهدف من بناء النموذج النظرى المقترح هو تحليل لديناميكيات «القدرة» فى المفاوضات السياسية الدولية وتقديم

تصنيفاً تحليلياً لها (Taxonomic Analysis). ولقد
تبنى الباحث أولاً استراتيجية الامبريقية الاستدلالية
(Deductive Empiricism) وهي خاصة بالتنقل من موقف
إجراءات) ثم تبنى الباحث استراتيجية الامبريقية الأولية Raw
Empiricism في تعامله مع البيانات بغرض استكشاف وفهم
طبيعة ديناميكيات واستراتيجيات القدرة في التفاوض مستعينا في
ذلك بالنظريات والأدوات المناسبة للتعامل مع البيانات لتكوين
افتراضيات البحث .

ثم تبنى بعد ذلك الباحث الاستراتيجية الامبريقية الاستقرائية
Inductive Empiricism لتحليل البيانات للتحقق من
الافتراضيات وكذلك لحل أى تناقض يبدو بين المكونات النظرية التي
استخدمت في البحث .

إن انتهاء هذه الاستراتيجيات بهدف فهم طبيعة موضوع البحث
والتحقق من نتائجه والتنقل من الاستدلال للاستقراء في شكل دائرى
هو ما اصطلح على تسميته في علم اللغويات باستراتيجية البحث
الدائرية Abduction.

وقد استند نموذج التحليل إلى افتراضيتين أساسيتين :
(١) افتراضية ازواجية تنص على أن الباحثين يستطيعون تقديم
فهم أعمق وأفضل لمفهوم «القدرة» "Power" كمفهوم ديناميكي
واستكشاف ديناميكيات المطارحات المتعلقة به في سياق المفاوضات
السياسية الدولية من خلال تحليل هذا المفهوم من منظور علم
اللغويات - العلوم السياسية - وعلم العلاقات الدولية .

(٢) افتراضية لغوية خاصة بتحليل المطارحات Discourse Analysis تنص على وجود علاقة تداخلية بين المفاهيم اللغوية التالية :

(أ) أثر فعل القول (Speech act) من زاوية الأثر المتعارف عليه والمراد إيصاله لمستقبل الرسائل (Illocutionary Force of Utterances) ومن زاوية الأثر الفعلي الذي أحدثه فعل القول على المستقبل له (Perlocutionary effect)

(ب) مفهوم «التحركات» (Moves) الاستراتيجية منها والتكتيكية .

(ج) مفهوم «الموضوع» (Topic) من زاوية جدول الموضوعات (Topic agenda) والموضوعات الناتجة عن التفاعلات (Interactional Topics) .

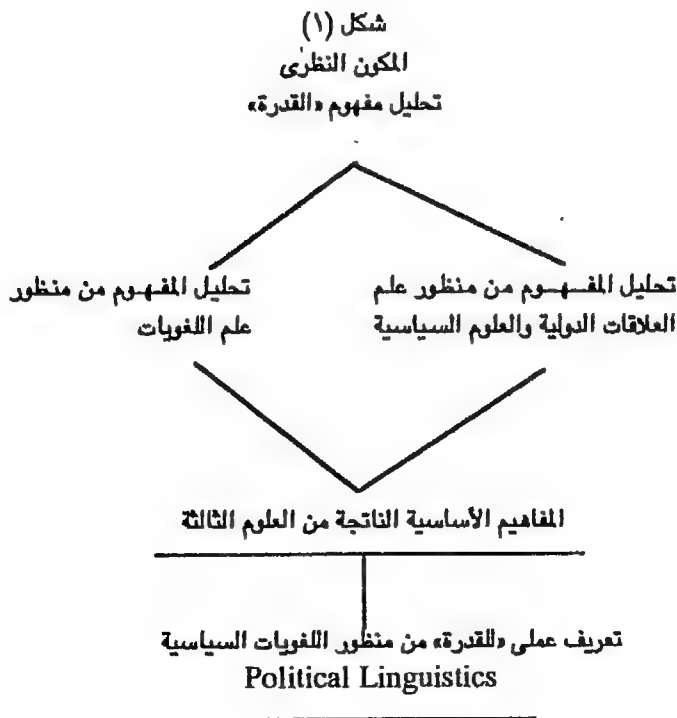
وتنص هذه الافتراضية اللغوية على أن هذه المفاهيم الثلاثة بالأبعاد المشار إليها ترتبط ارتباطاً وثيقاً ببعضها البعض وتمثل ما أسماه الباحث بـ «عنقود التفاوض اللغوي» (Linguistic Negotiation Cluster) والذي يتيح النظر إلى تلك العناصر المشار إليها آنفاً مجتمعة للوصول إلى ترجمة أو قراءة متسقة ورأسخة لكيفية استخدام هذه العناصر من قبل المتفاوضين لتحقيق الأهداف التعاونية المختلفة مثل : التعهد - إيجاب - البدأ - أو سد الطريق لها ، تحقيق التوازن - التأجيل - التذكير والتهميش .. إلى آخره من مفاهيم تفاوضية.. كذلك فإن البحث يوضح أن عناصر هذا «العنقود» تمثل كل منها وسيلة للتأكد من صلاحية تحليل كل عنصر من هذه العناصر (Verificational devices) .

(٣) إن هناك خصائص عالمية فى استراتيجيات التفاوض وأخرى مرتبطة بالخصوصية الثقافية .

وصف النموذج المقترح :

(١) المكون النظرى :

يوضح الشكل التالى وصف للمكون النظرى حيث يتم تحليل لمفهوم القدرة من منظور علم اللغويات وعلم العلاقات الدولية والعلوم السياسية.



وتقديم تعريف علمي له "operational definition" ويستمد هذا التعريف عناصره من التعريفات الشائعة في علم اللغويات لمفهوم «كفاءة الاتصال» "communicative competence" والذي تم ربطه بتعريف دول "Dahl" الشائع لمفهوم القدرة في العلوم السياسية، وهو قدرة الطرف «المفاوض» (أ) أن يحقق أهدافه التفاوضية من خلال تعامله مع الطرف «المفاوض».

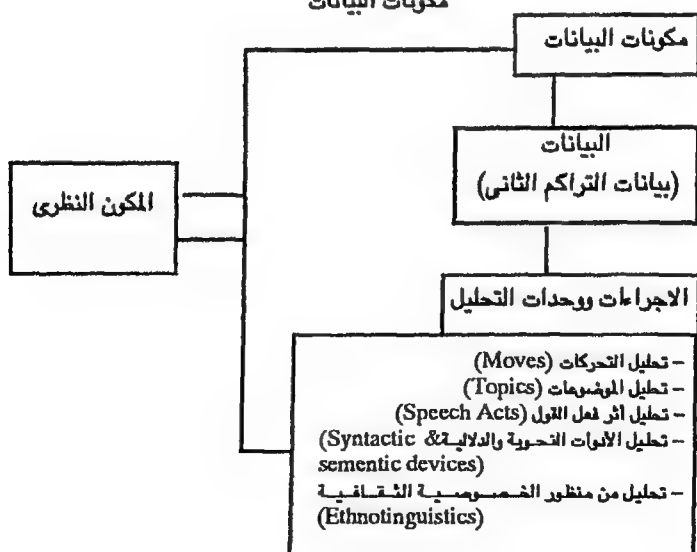
(ب) . (أنظر دول ٨٠: ١٩٦٩) .

(ب) وصف مكون تحليل البيانات :

ويرتبط مكون تحليل البيانات بالمكون النظري لتوضيح علاقة التنظير بتحليل البيانات جينة وذهابا كما يوضح ذلك الشكل (رقم ٢).

الشكل رقم (٢)

مكونات البيانات



وفيما يتعلق بمكون البيانات تلقى الضوء على:

(١) وصف للبيانات والصعوبات التي قابلت الباحث..

(٢) الاجراءات ووحدات التحليل الأساسية..

(٣) وصف البيانات والصعوبات التي قابلت الباحث وكيف تم

تذليلها:

رأى الباحث أهمية تحليل ديناميكيات مطارحات القدرة من خلال تحليل مواقف تفاوضية مثلت أداء المفاوضين الذين أثرت استراتيجيات تفاوضهم على مصائر اتجاهات أهم الصراعات التي شهدتها العالم منذ الخمسينيات إلى يومنا هذا (مثل السادات، كيسنجر، نيكسون، عبد الناصر، الجنرال جياپ الفيتنامي.. الخ) كذلك اشتمل بنك البيانات الخاص بهذا البحث على شخصيات إعلامية بارزة مثل تيد كوپل "Ted Koppel" معد ومقدم البرنامج الاخبارى الليلي بمحطة A.B.C بالتلفزيون الأمريكى والذي يقوم فيه بإدارة اللقاء مع الشخصيات السياسية العالمية.. جين كيركبتريك Jean kirkpatrick أستاذ العلوم السياسية وسفيرة الولايات المتحدة لدى الأمم المتحدة لوقت طويل.. المذيع الأمريكى سام دونالدسون (Sam Donaldson) والمذيعة الأمريكية بابرا والترز (Barbra Walters) والصحفية الإيطالية فلاشى (Fallaci) - الكاتب والصحفى العربى محمد حسنين هيكل - وشخصيات رسمية إعلامية وأكاديمية أمريكية ومصرية .

لقد كان من الصعوبة البالغة بطبيعة الحال الحصول على

نصوص المواقف التفاوضية كلها من خلال تسجيلات حية كما هي العادة فى أبحاث مدارس المطارحات بعلم اللغويات حيث يتمكن الباحثون عادة من الحصول على تلك التسجيلات آلية (Naturally occurring Data) فى تحليلاتهم للمطارحات القضائية ومطارحات الأطباء (والمرضى والطلاب) والأساتذة، والمحادثات فى السياق الاجتماعى العادى وربما لهذا السبب لم توجد بعد دراسات من علم اللغويات تعالج أمر المطارحات السياسية ولكن بسبب اهتمام الباحث بهذا الموضوع فلقد رأى أن يقدم ما أسماه ببيانات التراك الثانى (Track two Diplomacy Data) والتى عرفها بأنها تتصف بكونها قد سبق الإعداد لها بصورة أو بأخرى... أى أنها ليست تسجيلات حية بالمعنى الذى يقصده الباحثون فى علم اللغويات ولكنها عبارة عن مواقف تفاوضية من خلال البرامج الإذاعية السياسية مثل المقابلات (Interviews) وتلك المسجلة فى كتب السيرة الذاتية (Autobiographical Discourse) والخطابات (Speeches) والندوات السياسية (Symposia). ولقد وجد الباحث أن هذه النوعية من البيانات مناسبة إلى أبعد حد لدراسة موضوع البحث وذلك لكونها تتصف بالصفات التالية :

* إنها كلها تمثل وسائل يمكن من خلالها تحديد استراتيجيات المتفاوضين كذاق فإنها تعبر عن قناة حقيقية يستخدمها القانمون على إدارة الصراعات .

* إن المقابلات فى تركيبها ومعظم أحوالها قريبة إلى التسجيلات

الحية بالمعنى الذى يقصده الباحثون فى علم اللغويات وكذلك الأمر فى الندوات .

* إن المواقف التفاوضية كماهى موجودة فى كتب السيرة الذاتية تمثل نوعية خاصة من البيانات الغنية للغاية للتحليل والتعرف على الاستراتيجيات التفاوضية المختلفة فهنا يسجل مفاوض ما رؤيته لموقف تفاوضى ما وكذلك رؤية الآخرين لنفس الموقف كما رآها هو.. وكثيرا جدا ما يقدم المفاوضون نصاً لما حدث ومن غير المعروف أن يكون هذا النص مسجل لديهم أم هو مكتوب من الذاكرة.. وفى كلتا الحالتين فالمادة خصبة لتحليلها.. خاصة إذا ما تمت مقارنة نصوص نفس المواقف التفاوضية من خلال ما ذكره أكثر من مفاوض اشتركوا فى نفس المفاوضات الحقيقية على سبيل المثال لا الحصر أنظر إلى كتب السيرة الذاتية .

لما حدث فى أزمة أكتوبر ١٩٧٣ لتجد أن معظم من اشتركوا فى إدارة الصراع فى ذلك الوقت قد سجله فى سيرهم الذاتية.
(أنظر السادات ١٩٧٧، كيسنجر ١٩٨٢، اسماعيل فهمى ١٩٨٥)
وذلك على سبيل المثال لا الحصر .

واقدم تحليل المواقف التفاوضية التالية من بنك البيانات الخاصة بهذا البحث :

* مواقف تفاوضية من كتب السيرة الذاتية : (السادات ١٩٧٧
كيسنجر ١٩٨٢، اسماعيل فهمى ١٩٨٥) .
* مواقف تفاوضية من المقابلات (تيد كويل، فلاشى، واترز،

دونالدسون) مع الشخصيات الآتية :

- مناحم بيجن ، السادات، جين كريك باتريك، آيات الله الخميني،
الجنرال جياب.. الخ .

* مواقف تفاوضية من وثائق (نص الإنذار النهائي لمصر عام
١٩٥٦ وخطاب عبد الناصر من الأزهر للرد عليه .

* وقائع تحقيق سياسى أمام المدعى الاشتراكى (محمد حسنين
هيكل) ١٩٨٣ .

* بيانات مسجلة (تسجيل حى - نوات - محادثات على
المستوى الاجتماعى، كبيانات تدعيمية (Back up data)) .

واقـد وحـد بـين هـذه النـوعـيات مـن البـيـانات هـو تـعـرـيـف المـوقـف
التفاوضى على أنه ذلك الموقف الذى يبدأ فى تفاعل طرفان «أو
أكثر»، وتتصارع فيه قائمة الموضوعات (Topic agenda) الخاصة
بهما «بهم» ومحاولة كل طرف تحقيق أغراضه من عملية التفاوض .

وتستعرض المواقف التفاوضية فى هذا البحث تلك التى حدثت
أثناء احتدام الأزمات والأخرى التى حدثت فى أوقات غير أوقات
الأزمات .

(٢) الاجراءات ووحدات التحليل الأساسية :

* تحديد وتعريف النمط الرئيسى لنوعية ديناميكيات «القدرة» فى
الموقف التفاوضى محل الدراسة .

* عرض الخلفية الخاصة بهذا الموقف التفاوضى وذلك من خلال
توضيح السياق الشمولى وموضوع التفاوضى محل الدراسة .

* عرض الخلفية الخاصة بهذا الموقف التفاوضى وذلك من خلال توضيح السياق الشمولى وموضوع التفاوض .

* تقديم نص الموقف التفاوضى .

* تقديم تحليل للموقف التفاوضى من الناحيتين الوظيفية (functional) والتركيبية (structural) وذلك بتحليل :

التحركات Move Analysis

الموضوعات Topic Analysis

أثر أفعال القول speech Act Analysis

الألوات النحوية والدالية Semantic & syntactic devices

* تحليل الموقف التفاوضى ذاته مرة أخرى من منظور الاتصال عبر الثقافات Cross cultural communication (or Ethnolinguistics)

لتحديد مصادر وأسباب سوء التفاهم (إن وجد) أثناء الأداء اللغوى والذى قد ينتج بسبب استخدام تركيبات لغوية ثقافية خاصة.

رابعاً: الخاتمة ومجالات استخدام النموذج المقترح :

تؤكد هذه الدراسة على أهمية وجوب التوجه نحو الازدواجية الرأسية المتعمقة (Vertical Interdisciplinarity) لتحليل ظواهر السلوك الإنسانى المعقدة بطبيعتها وكان المثال العملى المشار إليه فى هذه الدراسة هو تحليل لديناميكيات «القدرة» فى المفاوضات السياسية الدولية من خلال رؤية مستمدة من علم اللغويات لطبيعة البحث الامبريقي ومن خلال تحليل أكثر من ٣٠ موقفا تفاوضيا .

وكذلك قدم الباحث نوعية من البيانات التي يسهل الحصول عليها
والتي أطلق عليها تعبير بيانات التراك الثاني .
وأوضح الباحث أيضا طريقة من الطرق التي يمكن بها معالجة
البيانات للوصول إلى فهم لاستراتيجيات «القدرة» في الأداء اللغوي
وتصنيفا تحليليا لها طبقا للنموذج المقترح. ولقد أدى تحليل البيانات
إلى إعادة تقييم تصنيفات تحركات المفاوضات (Bargaining
moves).

المراجع

- Al- Gabry, Muhammed Abed. Contemporary Arab political
Speech : An Analytical and Critical Study (In
Arabic). Dar - Al Taliah : Beirut, Lebanon October,
1985.
- Al - Gabry, Muhammed Abed. The Formation of the Arab Mind
(part 1& II). Center for the studies of Arab Unity:
Beirut, 1984 and 1986.
- Aron, Raymond. peace and War: A theory of International of
Relations, Doubleday : Garden city, NY, 1966.
- Azar, Edward. ""The Conflict & Peace Data Bank (OPDAB)
Project" Journal of Conflict Resolution, Vol. 24, No.
1March, pp.143-52,1980.
- Bell, David, "International Negotitions and Political Linguistics",
Un published paper york University, political
Science: ontario, canada, 1988.
- Berelson, B., Content Analysis in communication research, Free
press 1952.
- Berelson, B., Bernard & Gary A. Steiner, Human Behaviour : An
Inventory of Scientific findings (New york :
Harcourt, Brace and World, 1964.
- Bernstein, B. "Language and social class . In Brit . J. Social II, 27
L6. 1960
- Chomsky, Noam, Aspects of aTheory of syntar, MIT press:

- Cambridge, Mass 1965.
- Chomsky, Noam, *Language and the Mind*, Harcourt, Brace & World, Inc., 1968.
- Dahl, R.A. "The Concept of Power" in *Political power : A Reader in Theory and Research* (R.Bell, D.V. Edwards & R.H. Wanger, Eds.), The Free Press Orig. New York, 1969.
- Deutsch, Karl W. *Nationalism and social communication : An Inquiry into Foundations of Nationality*, 2nd Ed., MIT : Cambridge MA., 1966 .
- Deutsch, Karl W., *Analysis of International Relations*, Prentice Hall, Inc : New Jersey, 1978 .
- Flemer, Frederic, *Communist studies & the social Sciences*, Rand McNally & Company, in Chicago, 1969.
- Sittman, Norbert A *Critical Survey of Sociolinguistics Theory and Application* Translated from German by Peter, S. and pieter, et al., Norton's Press : New York, 1976 .
- Foucault Michael, "Politics and the study of Discourse, " *Ideology and consciousness*, pp.7-26, 1978.
- Gumperz, John "Sociocultural Knowledge in Conversational Inference" From Muriel Sacille- Troike, ed., *Georgetown University Round Table on Languages and Linguistics*, Georgetown University Press : Washington, D.C., 1977.
- Gumperz, John, "Verbal strategies in multilingual communications 1970" (In *Alatis 1970: Report of the 20th annual table meeting on Linguistics and Languages studies Monograph series on languages and linguistics 22*. Washington, D.C.
- Hassan M. Wageih "A linguistic Analysis of Mechanisms underlying power in international political Negotiations" A Dissertation, Georgetown University Washington, D.C 1989 .
- Holsti, K.J *International politics: A Framework for Analysis*, (1st Edition, 1966) Prentice Hall : New Jersey, 1988 edition.

- Jespersen, Otto, *Language : its Nature, Development and Origin*
London: Allen & Unwin, 1922.
- Labov William and Fanshel, David. *Therapeutic Discourse*, New
York: Academic Press. 1977 .
- Lado, Robert. *Linguistics Across cultures : Applied linguistics for
Language Teachers*. Ann Arbor: University of
Michigan Press, 1957 .
- Lado, Robert, " How to test cross Cultural Understanding: in
Robert Lado, *Language Testing*, London :
Longmans, Green, 1961 New York McGraw-Hill,
1964, pp. 275-89.
- Lakoff, Robin, " persuasive Discourse and ordinary with Examples
from Advertising" in, D. Tannen's *Analyzing
Discourse Text and Talk*, Georgetown University
Round Table on Languages and Linguistics,
Georgetown University Press: Washington, D.C
1981.
- Lyons, John *Language & Linguistics* , Cambridge University Press,
1981.
- Mehan, Hugh. "Social Constructivism in psychology &
Sociology" *sociologie et sociétés* Ino. 2,77 - 96
1982.
- Onuf, Nicholas. " after International Relations : The Constitution
of Disciplines and their Worlds" a paper presented
at American political Science Association, Chicago,
Illinois, Sept., 1987.
- Rorty, Richard. *The Linguistic Turn : Recent Essays on
Philosophical /method*, University of Chicago press :
Chicago, 1967.
- Shuy Roger W. " W "Conversational power in FBI convert Tape
Recordings" in *power through discourse*, Leah Kedar,
ed ., 1987.
- Shuy Roger W. Topic as the unit of analysis in a criminal law case,
in *analyzing Discourse: Text and Talk*, ed. D.Tannen
Georgetown University Press :Washington, D.C ,
1981.

- Tannen, Deborah. " The pragmatics of Cross - Cultural Communication, " *Applied Linguistics*, Vol 5, No. 3, 1984.
- Tannen, Deborah, *That's Not What I Mean* : William Morrow & Co., Inc: New york, 1986.
- Tomic Olca & Shuy, Roger, *The Relation of Theoretical & applied Linguistics* Plenum press. New York, 1987.
- Walker, Anne G." Linguistic Manipulation, power and the legal setting" *Journal of Georgetown Graduate Review*, vol 1. No 1, Spring 1984.(also in Kedar's ed., 1987).
- Weinert, Brian. *The Civic Tongue : political Consequences of Language Choices*, Longman : London, 1983.
- Yassin, El Sayed. " In Search of a New Identity of the Social Sciences in the Arab World: Discourse, Paradigm, and strategy " in *The Next Arab Decade: Alternative Futures* ed, by H. Sharabi (English version), Westview press: Colorado, 1988 (Arabic Version issued in 1986) .

ضد المنهج

إطالة على أزمة العقلانية الغربية المعاصرة

د. أحمد أنور أبو النور (*)

(*) مدرس بقسم الفلسفة بأداب المنوفية.

ليس من شك في أن النزعة العلمية Scientism قد سادت الفكر الغربي في القرون الأربعة الأخيرة على وجه العموم . وكان الخلاف بين المدارس الفلسفية يدور أساساً حول مدى قدرة كل منها على التوافق مع هذا المارد الذي فتن الناس بنتائجه الباهرة ، وتطبيقاته المتنوعة، والاتساع المستمر لنفوذ نظرياته المختلفة . وسريعاً ما انتقلت عدوى الافتتان بالعلم الى معظم الاتجاهات الفكرية في دول العالم الثالث ، وإلى المخططين والساسة الذين قادوا هذه الدول في مراحل التحول وتأسيس السلطة الوطنية في كل منها .

ولسنا بحاجة إلى رصد تاريخ هذه النزعة منذ بداياتها الأولى حتى وصلت إلى ما وصلت إليه في يومنا هذا ، ويكفي التوقف بعض الشيء عند عناصر النزعة العلمية المتطرفة كما تجلت في القرن العشرين عند أعلام المدرسة التجريبية العلمية، حيث إن هذا التيار الفكرى يمثل أكثر أشكالها وضوحاً وطموحاً. ويمكن تلخيص هذا الموقف في خمسة عناصر مترابطة [Sorell(1991),p.4] .

أولاً : وحدة العلم: العلم الإنسانى تنتظمه وحدة كاملة تتوارى خلف التنوع الظاهر ، ذلك أن قوانين نظرية معينة يمكن ردها إلى قوانين نظرية أخرى ، وكذلك الحدود الواردة بنظرية معينة

سريعاً ماتجد تعريفاً لها فى نظرية أخرى أكثر أولية منها [Ibid, p.5] ويأتى هذا الاتجاه معارضاً لاتجاهات كثيرة تعترف بالاختلاف الجوهرى بين العلوم الاجتماعية والانسانية من جهة والعلوم الطبيعية من جهة أخرى (دلتاى مثلاً) من حيث المنهج ومن ثم فى النتائج التى تتوصل اليها كل منها على حدة.

ثانيا : لاحدود للعلم : يعترف التجريبيون بداية أنه ربما تكون هناك أبعاد معينة من التجربة الإنسانية فى هذا العالم تقع خارج حدود العلم . أما بالنسبة للبعد الخاص به، أى البعد الذى يهتم بدراسته، فالعلم لاحدود تقف في طريقه. يقرر كارناب فى هذا الصدد أنه حين نقول إن العلم لاحدود له فنحن نعنى أنه ليس هناك سؤال إلا ويستطيع العلم ، من حيث المبدأ ، يقدم إجابة عنه [Carnap(1967), p.20]

ثالثاً: أثبت العلم نجاحا هائلاً فى التنبؤ والتفسير والتحكم ، وتدلنا دراسات كارناب وكارل همبل على تحقق هذا الأمر فى الفيزياء وغيرها من العلوم الطبيعية، بل فى حالة العلوم النفسية والاجتماعية أيضا [Sorell(1991),p.6] ويلاحظ سوريل أن الفلسفة تجد أيضا مكانا ذا قيمة فى هذا المخطط الذى ترسمه الملامح الثلاثة معاً وهو ما يدعوننا الى البحث عن الأساس الذى يبنى عليه نجاح العلم واختراقه للحدود التى تمنع الأنظمة الفكرية المنافسة من الانطلاق ، وكذلك اقتترابه من

التوحد النسقى الذى يؤكدُه أصحاب النزعة التجريبية .
رابعاً : المنهج العلمى يحقق الموضوعية للنتائج التى يتوصل إليها العلماء ، والحقيقة أن المنهج هو السر الذى يراه التجريبيون وراء نجاح العلم ، وهو لذلك يكفى لتفسير هذه السمات الجوهرية التى يوصف بها النشاط العلمى ، ويجعل من المقبول الوثوق به الى حد كبير . والمنهج هنا يضمن للعلم ألا يضل ، وإنما يتمكن العلماء بواسطته من الكشف عن قوانين الواقع .

خامساً : العلم كان دائماً فى صالح الإنسان . وبالرغم من أن هذا الملمح يكاد يكون نتيجة طبيعية للملامح الأربعة السابقة ، إلا أن سوريل يعتبره أهم الملامح فى تعريف النزعة العلمية المتطرفة التى يخصص دراسته الهامة لها . [Ibid, P.7]
ونحن لانتفق بالضرورة مع ما يؤكدُه سوريل ، لأننا فى الواقع نعتبر الإيمان بالمنهج العلمى الصارم هو الأساس فى كل نزعة علمية سواء كانت متطرفة أو معتدلة . أما قضية كون العلم فى صالح الإنسان أم لا فهى مسألة خلافية ، وهو ماسيتضح فى نهاية البحث على كل حال أما قضيتنا المحورية التى ستشغلنا فى هذه الدراسة فهى المنهج العلمى قبل أى شئ آخر .
والمدخل الصحيح لقضيتنا المحورية يرتبط بسؤال يتردد الآن بقوة فى الثقافة الغربية ويتعلق أساساً بالوضع الخاص

اكتسبه العلم فى تلك الثقافة ، وانتقل ببساطة الى ثقافتنا العربية ، بل كاد يصبح ثابتاً أساسياً فى الثقافة العالمية ككل . ما هو السبب الذى يكتسب من أجله العلم هذا الوضع الخاص بالقياس الى أشكال الوعي الانسانية الأخرى ؟ ولاشك أن أهم من سأل هذا السؤال فى النصف الثانى من القرن العشرين هو الفيلسوف النمساوى المعاصر بول فيرابند وإن لم يكن الوحيد الذى شغله هذا الأمر الذى يعكس فى تقديرى أزمة العقلية الغربية منذ بداية الخمسينيات على الأقل .

فى هذا السياق التاريخى المضطرب انطلقت اسهامات بول فيرابند المثيرة للجدل فى نقد العلم والنزعة العلمية المتطرفة . هذا المفكر المحير الذى نضجت عبقريته الفكرية وروحه الفنية عشية نهاية الحرب العالمية الثانية ، هذا المفكر أعلن صراحة أن الصورة التى بذل الفكر الغربى جهوداً جبارة على مدى عقود طويلة فى رسمها للعلم لا تتطابق مع واقع الممارسة العلمية الفعلية من قريب ولا بعيد ، فضلاً عن أنها لاتمثل ما يجب أن يكون عليه العلم على أى حال .

ويأتى كتاب فيرابند الشهير والمثير للجدل " ضد المنهج Against Method " الذى صدر فى منتصف السبعينات ليشكل خلاصة دراساته العميقة حول تاريخ العلم وقضاياها الفلسفية المتشابكة . وهو يعلن فى مقدمة الكتاب تبنيه لافظرية

فوضوية فى المعرفة على وجه العموم وفى فلسفة العلم على وجه الخصوص [Feyerabend, p.(1975), p.18] .

إن الفوضوية ليست بالضرورة الفلسفة السياسية المثلى الصالحة للمجتمع الإنسانى كما يعترف بذلك فيرابند ، ولكن المنهجية الفوضوية anarchistic Methodology ، ومايتبعها من علم فوضوى anarchisitic science يمثلان معاً نظرية المعرفة المثلى من وجهة نظر مفكرنا . ولانشك لحظة فى أن هذه العبارة هى من أشد صياغات حركة نقد العلم تطرفاً ، وفيها يظهر مدى معاداة تيار من المفكرين الغربيين المعاصرين للنزعة العلمية التى سادت الفكر الغربى زمناً طويلاً على النحو الذى أو ضحناه منذ قليل .

ويبدأ هجوم فيرابند الشامل بالتركيز على المنهج العلمى كما يتبين من خلال كتابات فلاسفة العلم سواء كانوا من أجيال الرواد أم كانوا من الكتاب المعاصرين ، مؤكداً أن بالإمكان بيان فساد كل القواعد المنهجية المتعارف عليها مما يعنى أنه توجد دائماً ظروف ينصح فيها لا بمجرد تجاهل تطبيق هذه القواعد ، بل بتطبيق عكسها تماماً [p.23, (1975)] ، وهذا معناه أننا لسنا أمام مجرد نقد حاد لمنهجية معينة لوجه قصور معين فيها ، وذلك لصالح منهجية أخرى كما قد يحلو للبعض أن يستنتجه من بعض العبارات المقتطعة من السياق العام لكتاب

إن صاحبنا يصر على أن كل القواعد المنهجية التي يتشدد
بها فلاسفة العلم سواء الاستقرائيون أو التكمينيون تتعارض
تماماً مع مصلحة العلم بمعنى أنه يجب إسقاطها وتطبيق قواعد
عكسية Counterrules محددة . وعلى سبيل المثال يجب
علينا في الممارسة العلمية الفعلية أن تطبق في أحيان كثيرة
فروضا عينية ad hoc hypothesis أى فروضا لقيمة لها
إلا إنقاذ نظرية علمية متناقضة ، وعلى العلماء أن يقدموا أحيانا
فروضا تتناقض مع نظريات قائمة بالفعل ، بل وأن يقدموا في
أحيان أخرى فروضا علمية متناقضة مع النتائج التجريبية
المقبولة والمستقرة . [pp.23-24]

كل هذه النصائح المنهجية التي يروح لها فيرابند تتعارض
تماماً مع كل المنهجيات القائمة ، وهو يتحدثها لابتقديم الأدلة
"العقلانية " التي تدعم وجهة نظره فقط ، بل بالاحتكام الى
محكمة فلاسفة العلم التي لامناص منها ، وهى المتمثلة فى تاريخ
العلم ، وهو الذى يؤكد كل القواعد العكسية التى يعلنها فيرابند
'ومن الواضح أن فكرة وجود منهج محدد أو نظرية محددة
للعقلانية تقوم على نظرة ساذجة للإنسان ومحيطه الاجتماعى ...
هناك مبدأ وحيد يمكن الدفاع عنه فى جميع الأحوال ، وفى كل
مراحل التطور الإنسانى إنه مبدأ "anything goes" الذى
نترجمه بعبارة «كله ماشى» العامة الدارجة والتى أتصور أنها

تلخص وتكثف فلسفة فيراياند العلمية ولذلك فضلنا ترجمة المبدأ بهذا التعبير المستعار من اللغة الدارجة وهو ما يتوافق بالقطع مع مزاج صاحبنا على كل حال [pp. 27-28].

* * *

عند هذا الحد يحق لنا أن نسأل فيراياند: ما معنى مبدأ «كله ماشى» الذى تروج له بهذا القدر من الحماس؟

وتتنقسم إجابة فيراياند إلى شقين: الشق الأول يتمثل فى امتحان كل القواعد المنهجية التى تقدم بها الاستقراءيون والتكذيبيون وغيرهم أمام محكمة تاريخ العلم. هل التزم العلماء فى ممارساتهم العلمية بمثل هذه المنهجيات؟ ونحن نجد فى كتابات فيراياند وغيره من المفكرين التى تناولت بالتحليل التفصيلي نماذج كثيرة من تاريخ العلم حالات كثيرة من الخروج على القواعد المنهجية المتعارف عليها فى كتابات الفلاسفة.

أما الشق الثانى: فيتمثل فى الجانب الإيجابى المعيارى من أطروحة فيراياند الجريئة، وهو أن مبدأه الفوضوى هو ما يجب أن يكون، هو الذى سيكون فى صالح المثل الأعلى الليبرالى الذى ننشده. وواحدية السلطة فى العلم ليست فى صالح العلم نفسه.

خذ القاعدة المنهجية التى تقرر أن علينا أن نقدم ونطور فروضاً علمية غير متسقة مع النظريات المقبولة والمؤيدة بدرجة

عالية (p.29) ويهدف فيرابند من هذه القاعدة إلى إذكاء المنافسة بين نظريات العلم. النظرية القوية مطلوبة ومرغوبة ولكن لا تترك لها الساحة خالية، وعلينا أن نوجد وتدعم البدائل المختلفة لهذه النظرية، فخير اختبار للنظرية العلمية أن تتنافس مع نظريات أخرى قوية. وفي هذا الإطار ينصح فيرابند بالبحث في تأسيس صورة معدلة لنظرية الخلق المستمدة من النصوص الدينية حتى تواجه نظرية التطور، ويكون التنافس العلمى بينهما فى صالح التقدم وفى صالح الإنسان صحيح أن الكثيرين من فلاسفة العلم يجزمون بالتفوق الحاسم لنظرية التطور [راجع مثلاً 6 Ch. (1992) Thagard] ولكن هذا يجب أن يؤدي فى نظر فيرابند إلى العمل بصورة أفضل فى إعادة صياغة نظرية الخلق، وغيرها من النظريات، حتى لا تترك نظرية التطور وحدها على الساحة. ويصبح العلم وفق هذا التصور أبعد ما يكون عن سلسلة النظريات المتسقة التى تتجمع متجهة نحو المثل الأعلى، ولا الاتجاه التدريجى نحو الصدق النهائى، بل إنه سيكون محيطاً من البدائل النظرية غير المتسقة فيما بينها، وكل نظرية منفردة، كل رواية خيالية، كل أسطورة تشكل جزءاً من هذه المجموعة تجبر الأخريات على مزيد من الدقة والوضوح، وتساهم جميعاً فى هذه العملية عن طريق التنافس فيما بينها فى تقدم وعينا (p.30) .

إن هذا الحديث يذكرنا بحديث الليبراليين عن أهمية تدعيم التنافس فى السوق، ومنع الاحتكار، وكذلك التنافس بين الأحزاب المختلفة والقوية على الوصول للسلطة، بل يذكرنا بحديث النقاد الرياضيين عن أهمية قوة المسابقات الرياضية فى ارتفاع مستوى أداء الفرق المختلفة. درس فيرابند يتلخص فى أننا فى الممارسة العلمية نفعل ذلك تماماً، وهذا ما يجب أن يكون. ويضرب مثلاً من تاريخ نظريات الحرارة لتوضيح أهمية التنافس بين النظريات لكى يحدث تقدم حقيقى. كان سقوط النظرية الفينومولوجية فى الحرارة ولا شك تقدماً كبيراً فى الفيزياء فى نهاية القرن التاسع عشر. يقرر فيرابند أن سقوط هذه النظرية باكتشاف التناقض بينهما وبين ظارة الحركة البراونية لم يكن ليحدث لولا تطوير نظرية منافسة وبديلة لها هى الديناميكا الحرارية التى قدمت الأساس النظرى للحركة البراونية مما ساهم فى رفض النظرية الفينومينولوجية وكان هذا بالقطع فى صالح العلم (p.40).

إن ما نستخلصه مع فيرابند هنا هو أن النصيحة المنهجية التى قدمها إسحق نيوطن والتى تدعونا إلى عدم البحث فى بدائل النظرية العلمية إلا بعد أن يظهر ما يتعارض معها من ملاحظات وتجارب - هذه النصيحة ليست فى صالح التقدم العلمى بأى معنى من المعانى بالرغم من أنها مقبولة على نطاق واسع من

قبل أصحاب المنهج الاستقرائي، بل مقبولة بشكل جزئى من كارل بوبر الذى يؤكد على الطابع الثنائى للنقد العلمى، أى وضع النظرية فى مقابل الوقائع التجريبية التى تنجح فى النهاية فى إسقاطها. ولكن هذا النجاح يستحيل أن يحدث - كما يوضح فيرابند - بون وجود نظرية أخرى على درجة عالية من التطور بحيث توفر الأساس الذى نخلق منه «الحقائق» التجريبية التى نمتحن بها النظرية المستقرة.

وهذا يعنى بالضرورة أن الممارسة العلمية كانت دائماً متعددة الأطراف، يجب أن نسعى لتدعيم الأطراف جميعاً مما يخلق المناخ الصحى للملائم لنمو المعرفة ولتصحيح صورتنا عن العلم عن طريق نفى وحدته وتطوره الخطى باعتبارهما هدفين ساذجين وغير واقعيين للنشاط العلمى.

والآن، إذ كان من الجائز أن ندافع عن التعايش «غير السلمى» بين نظريات العلم، بل وأن نسعى إلى إذكائه، فماذا نحن فاعلون إزاء علاقة النظرية بالحقائق الفردية والملاحظات ونتائج التجارب؟ وتأتى أهمية هذا السؤال من زاوية اتفاق معظم فلاسفة العلم على أن نتائج التجارب والمشاهدات هى القول الفصل فى الحكم بين النظريات العلمية المتنافسة.

ونعلم من كتابات إمري لاکاتوش Lakatos الناقدة لكارل بوبر أن كل النظريات العلمية تولد فى بحار من التناقضات،

ومعنى ذلك أنه لا توجد نظرية علمية متفقة مع كل «الحقائق». لو استمعنا لبوبر لألقينا هذه النظريات جميعاً من النافذة، ولكن فيراوند يعلن ضرورة احتضانها وتدعيمها. ويكفى لبيان ذلك إعادة التأكيد على ما كان لفيلسوفنا مع كوكبة من فلاسفة العلم أن كشفوا عنه فى الستينيات من علاقة «جدلية» بين الملاحظات والنظريات. الملاحظات تعتمد على النظريات وتساهم فى نفس الوقت فى تأسيس نظريات جديدة، هذا ماكشف عنه فيراوند، مع هانسون وبيتنام وغيرهم، ومن هنا فالإصرار على الدفع بنظريات علمية تتعارض مع نتائج الملاحظات والتجارب يبدو معقولاً، عند فيراوند من زاوية أنه يزكى التنافس بين النظريات، ويؤسس عوالم ممكنة مختلفة يمكن من خلالها النظر إلى العوالم الأخرى التى ترسمها النظريات المنافسة ونقدها.

وتاريخ العلم يؤيد هذه الأطروحة، ذلك أننا كثيراً ما نجد أن نظريات علمية كثيرة قد استمرت ونمت وساهمت فى تقدم البحث العلمى وعاشت قروناً طويلة بالرغم من تعارضها الذى لا شك فيه مع بعض «الحقائق» المتاحة وقت ظهورها. يذكر فيراوند (pp. 55 - 56) منها ما يقرره جاليليو من أنه لا حدود لهشته إزاء تعارض نظرية كوبرنيكوس (وأرسطارخوس) مع حقائق واضحة جداً. كذلك واجهت نظرية الجاذبية النيوتونية صعوبات خطيرة كانت كافية لرفضها منذ البداية. وبالنسبة

لنموذج نيلز بور الذرى نجد أنه قدم وطور بالرغم من وجود أدلة عكسية دقيقة ولا سبيل للشك فيها..ترعرعت أيضاً نظرية النسبية الخاصة التى قدم كوفمان نتائج تجريبية دقيقة متعارضة معها.. وهكذا. كل هذه مجرد أمثلة على نظريات علمية ولدت متناقضة داخليا ومع الملاحظات التجريبية بشكل واضح أمام روادها ونقادها بنفس الدرجة، ومع ذلك لم يتم التخلص منها، بل استمرت وقويت وتدعمت وتنافست فيما بينها بأشد ما يكون التناقس.

ويمضى فيرابند فى تقديم الأمثلة المتعددة على تعارض الممارسات العلمية فى أكثر صورها إبهاراً مع كل القواعد المنهجية المتعارف عليها، ويتعرض بالتحديد لتاريخ الثورة العلمية الكبرى التى تأسس بها العلم الحديث كله، وهى النظرية الكوبرنيكية التى تطورت ونمت وشكلت الأساس المتين للفكر الإنسانى على أيدي كوبرنيكوس ثم جاليليو ونيوتن وغيرهم. هذه النظرية وصلت إلى هذه المكانة بالرغم من تعارضها مع العديد من «الحقائق» المتعارف عليها - مثال حجة البرج - فضلاً عن النظريات العلمية المستقرة فى ذلك الوقت، وقد دفع أنصار هذه النظرية بما يؤمنون به بالرغم من علمهم بتناقضاتها الداخلية فضلاً عن تناقضاتها مع غيرها، وكان حافزهم إلى هذا بعض الاعتقادات الميتافيزيقية التى جعلتهم يفضون الطرف عن

النصائح المنهجية التى تجلت فى كتابات فيلسوف مثل بيكون، بل فى كتاباتهم المنهجية نفسها، وكان هذا كما أثبت التاريخ فى صالح التقدم العلمى ولا شك .

غير أنه عند الحديث عن التقدم فى العلم يجب الاحتراز والتحفظ بعض الشيء، فبول فيرابند وتوماس كون وغيرهما يقدمون معاً الأساس الفلسفى المتين لظاهرة عدم الاتساق الجذرى Incomensurability بين نظريات العلم الكبرى، وبالنسبة لكون Kuhn تحديداً نجد أن مراحل الثورة العلمية تؤسس نسقاً نظرياً منفصلاً تماماً عن النسق الذى ينتمى الى النموذج القياسى السابق على هذه الثورة (راجع الترجمة العربية لدراسته الهائلة حول بنية الثورات العلمية) وهذه نتيجة من أخطر نتائج البحث الفلسفى التى كان لفيرابند مع كون دور هام فى تقديمها والدفع بها فى حلقات البحث الفلسفى منذ الستينيات حتى يومنا هذا (راجع مثلاً Ch. 17 من «ضد المنهج»).

وقد أثبتت كتابات توماس كون المتأخرة قدرته على التراجع عن النتائج المتطرفة التى تؤدى إليها نظريته فى الثورات العلمية والنماذج القياسية، ونعنى تحديداً تنصله من النسبية المعرفية على وجه الخصوص، أما فيرابند فقد أثر أن يمضى الى نهاية الشوط وأن ينتقل من نقد فكرة الحقيقة العلمية الى رفض المنهج

الى رفض العلم أو على الأقل رفض تمييز العلم بأى صورة من الصور عن أشكال التعبير الإنسانى المختلفة ليقول فى النهاية وداعاً للعقل نفسه (١٩٨٩) وبذلك ينضم الى قافلة أصحاب ما بعد الحداثة من أمثال ليوتار (١٩٨٥) وريتشارد رورتى (١٩٨٠) وغيرهما، وإن كان يتميز عن هذه الكوكبة بكونه قد اعتلى المسرح من سلم فلسفة العلم كمحترف، ولا ينكر أقسى نقاده تمكنه من هذا التخصص الدقيق.

صحيح أن هناك بعض المحاولات الجادة لإعادة تفسير موقف فيرابند، والتخفيف من غلواء المضامين النسبية التى تعبّر عنها كتاباته دون أدنى موارد، ومن هذه المحاولات الدراسة الجادة التى قدمها هوكر Hooker وذلك بغرض إيجاد حل وسط يقرب بين فيرابند والتيار العام الأكثر تقليدية فى الفكر الغربى عموماً وفى فلسفة العلم على وجه الخصوص. [راجع فى هذا الصدد Hooker (1991)] لكن فيرابند يسخر من هذه المحاولة ويمضى مستخفاً حتى بالمتعاطفين معه بنقاده اللاذعين بنفس القدر من الحرارة.

وعلى مستوى ظاهرة فيرابند الخاصة نجد أنه يمضى دون تردد فى نقد أقدس الأقداس فى الثقافة الغربية وهو العلم والمنهج العلمى، ويسخر بمرارة من المفتونين بالعلم والمنهج. إن فيرابند أشبه بالفنان المتمرد على عصره، ولكن الطريف أن هذا

التمرد كما يتجلى فى كتاباته الفلسفية ليس مطروحاً كعمل فنى يغفر لصاحبه أن ما يقدمه خيال فى خيال، ولكنه مطروح كفلسفة علمية دقيقة، بل وكروية اجتماعية وحضارية مرتبطة بفلسفة سياسية ونظرة شاملة للكون ومكان الانسان فيه، ولعلنا لا نفاجاً أن فيرابند فى بداية حياته العملية كاد أن يعمل فى مسرح بريخت مساعداً للمخرج. صحيح أنه ترك المسرح ولكنه نقل روح الفنان معه الى حرم العلم المقدس. وهذا ما يجلب عليه الانتقادات التى لا تنتهى.

والآن نتساءل: ماذا عن النتائج التى يمكن استخلاصها من أطروحات فيرابند؟ لا شك أن صاحبنا يهاجم العلم والعقل الإنسانى بصورته التى حاول الفكر الغربى ترويجها لسنوات طويلة بدءاً من القرن السابع عشر على وجه التقريب. العلم طبقاً لتحليلاته التفصيلية التى تناولناها أقرب فى بنيته الى الأسطورة مما تسمح به أى فلسفة علمية ظهرت قبل فيرابند (p. 295) ولعلنا نذكر هنا أن واحداً من عناصر النزعة العلمية المتطرفة التى رصدناها فى السطور الأولى لهذا البحث يتمثل فى تميز العلم بصورة حاسمة عن كافة أشكال الوعى الإنسانى.

ولما كان تميز العلم يتحقق بوجود منهج صارم دقيق فإن ما حاول فيرابند البرهنة عليه من عدم وجود منهج علمى على الإطلاق كما أكد تاريخ العلم، بل إن محاولة فرض منهج على

الممارسة العلمية يعوق التقدم ويهدر إمكانات البشر المعرفية كما يقول. وهنا تؤدي هذه المقدمات الى سقوط كل دعوى لتميز العلم عن الأسطورة وعن البناءات الميتافيزيقية الكبرى، ويستند فيرابند الى بعض نتائج الدراسات الانثروبولوجية الى قدمها إيشانز بريتشارد وهاملتون وجرمياس وروين هورتون وغيرهم ، ساهمت هذه الكتابات فى رصد تشابهات كثيرة بين العقل العلمى والعقل الأسطورى.

ومع ذلك فقد كان من الممكن استيعاب نتائج الدراسات الانثروبولوجية على اعتبار أن العلم والأسطورة غير متسقين جذريا Incommensurable ، وهو ما قد يفتح باباً ضيقاً لإعادة تأسيس التمييز الذى نلحقه بالعلم، يتمثل هذا فى صلة العلم بالواقع وأن طابع العلم تمثيلى representational ، أى أنه شبيه بمرآة تعكس الواقع الفيزيائى بدرجة معقولة من الدقة. ولكن الدراسات المعاصرة فى الابستمولوجيا الاجتماعية تقدم أدلة كثيرة وهامة ضد هذا الطابع التمثيلى باعتبار أن العلم تركيب اجتماعى على درجة عالية من التعقيد [راجع فى هذا Woolgar (1988)]، أو أن مجاز المرأة لا ينطبق على البناءات العلمية بأى صورة من الصور [Rorty (1980)] . ومن ناحية أخرى ساهمت أطروحة عدم الاتساق الجذرى Incommensurability بين العديد من نظريات العلم

الكبرى كما كشف عنها فيرايند [Ch. 17, (1975)] وتوماس كون فى تقويض أساس مبدأ تميز العلم بالصورة التقليدية. وبذلك فالعلم والأسطورة يقفان على قدم المساواة ويتنافسان كرؤى مختلفة للعالم من حق الفرد أن يقبل واحدة منها دون الأخرى. لا تميز للعلم من زاوية معرفية على الإطلاق حين نقارنه بأساطير البدائيين أو بالانساق الميتافيزيقية التى قدمها فلاسفة ومفكرون فى عصور سابقة، أو برؤى للعالم مستقاة من النصوص الدينية السماوية.

نتيجة «منطقية» مترتبة على هذه الرؤية تتمثل فى أن من الضرورى الفصل بين العلم والدولة. يؤكد فيرايند أن الحضارة الغربية قد أنجزت قدراً كبيراً من الفصل بين الدين والدولة، ولذلك فهى فى حاجة الى الفصل بين العلم والدولة. ذلك أن الواقع التاريخى للحضارة الغربية يؤكد أن العلم أوشك فى أكثر من مرحلة أن يحل محل الدين ويلعب دوره فى تبرير السلطة والمحافظة على وحديتها كما فعل الدين فى العصور الوسطى (pp. 299-300).

إن دور العلماء والخبراء يشبه الى حد كبير دور رجل الدين فى العهود الماضية من تاريخ أوربا، الخبير والعالم المتخصص فى فرع من فروع المعرفة له سلطة مرتبطة بسلطة الدولة، ولا رقابة اجتماعية على المتخصص. أما الروح الليبرالية المتطرفة

[راجع (Newton Smith 1981) التى يعبر عنها فيرايند فتؤكد على ضرورة السماح لكل التقاليد المعرفية المختلفة بأن تعبر عن نفسها داخل المجتمع دون هيمنة لطرف على بقية الأطراف، وهذه هى دعوى فيرايند التى طورها فى دراسته التالية ، وهى بعنوان: «العلم فى مجتمع حر».

ويطالب فيرايند بأن تطبق فلسفته الليبرالية فى التعليم الذى يجب أن يعكس أيضاً ايمان المجتمع بقيمة الليبرالية المطلقة حتى على حساب العلم. لماذا نعطي أصحاب نظرية التطور الحق فى الانفراد بالكلمة فى نظامنا التعليمي؟ ولا نعطي نظرية الخلق نفس الحق؟ لماذا يستأثر الطب الغربى بكل الاهتمام والتمويل البحثي ولا نسمع لممارسى الطب الشعبى بنفس الفرصة؟ إن فيرايند يطالب بالمساواة الكاملة لكل هذه التقاليد حتى تتصارع ويعبر المجتمع الإنسانى عن تعدديته بكل قوة مما يشكل الأساس لتفتح طاقاته وانطلاق الجميع.

* * *

وبعد هذه الرحلة القصيرة والشائقة مع ممثل لتيار رفض الحداثة فى الفكر الغربى، وناقد قاس للعلم الغربى أكثر جوانب الحضارة الغربية سطوعاً وموضع الفخر للجميع تقريباً حتى عصر قريب، ماموقفنا نحن فى هذا الجزء من العالم؟ إن هذه الدعاوى تتلاقى جزئياً على الأقل مع بعض الدعاوى التى تطالب

بالانغلاق عن العالم الخارجى والنكوص الى الماضى السحيق
بحثاً عن مستقبل شائه غير واضح المعالم.

إن مهمتنا تبدأ بالفهم ثم البحث عن الدروس المستفادة. أما
عن موقف فيرابند وريتشارد رورتى Rorty وليوتار Lyotard
وغيرهم من المفكرين من دعاة النسبية واللاعقلانية فهم يمثلون
تياراً يحاول تجاوز المشروع الحداثى وليس النكوص عنه، ومن
ثم فقد يجوز أن نقبل هذه الأطروحات ليس بحثاً عن بديل جاهز
محدد، بل، تأسيساً على مكتسبات القرون الأربعة الأخيرة
ورفضاً بالقطع لمثالبها الكثيرة والخطيرة.

يقول فيرابند أن ما يطرحه من رفض للمنهج ورفض لهيمنة
العلم ورفض للعقلانية الغربية لن يؤدى الى الفوضى الشاملة
Chaos ، وهى تختلف عن الفوضى المنظمة Anarchy إلى
حد كبير. هو أولاً يثق أن دعوته لن تكون مقبولة من الجميع(١)
وهذا ضمان لعدم الانزلاق الى الفوضى الشاملة. ولكنه يعبر فى
موقفه العام عن مفارقة طريفة: فمن ناحية يؤكد فيرابند على
أهمية وجود من يرفض أطروحاته المتطرفة، وهو هنا كمن يتأمر
على أرائه، ومن ناحية أخرى يبدو طبيعياً أن توجد رؤية فلسفية
معارضة له، وهو ما تقضى به فلسفته التعددية على كل حال.
ويسعدنا بالتأكيد أن نكون ضمن خصوم فيرابند.

غير أن مهمة الفهم عسيرة ونحن إزاء هذه الشخصية

الفكرية المحيرة، كيف لا وهو يمثل ظاهرة تستعصى على التحليل والاستيعاب حتى بالنسبة للتيار العام فى الفكر الغربى؟ ومع ذلك نستطيع أن نقرب قدر الإمكان من بعض الملامح العامة التى تجعل من كثير من أطروحات فيرابند مفهومة، بل وربما مقبولة جزئياً إذا نظر إليها فرادى على الأقل.

إن نقد المنهج الذى يمثل جوهر فلسفة فيرابند يرتبط الى حد كبير بأزمة المنهج فى الثقافة الغربية المعاصرة بدءاً من نقد الاستقراء عند هيوم ثم بوبر فى القرن العشرين. وكذلك نقد الكثيرين من أصحاب العلوم الانسانية والاجتماعية للمنهج الاستقرائى والمنهج البوبرى لصالح أطروحات منهجية متباينة. ولعل هذا ما دفع الكثيرين الى تبنى أطروحة تعدد المنهج عموماً، وفى العلوم الاجتماعية على وجه الخصوص [Roth (1987)]. صحيح أن فيرابند يتجاوز هذا الطرح ليدعم المناهج المتناقضة والرؤى المتعارضة، ومن ثم لضرب فكرة المنهج الواحد الوحيد ذاتها، ولكن الخلاف بالنسبة لبعض الدارسين خلاف فى الدرجة فقط، وإن كان كبيراً.

يعكس الطرح الفكرى الذى يقدمه فيرابند اهتماماً متنامياً فى الفكر الغربى بداية من ديوى Dewey وانطلاقاً من أطروحات فثجنشتين Wittgenstein المتأخرة بدراسة الممارسة الإنسانية Human Practice ، وجعلها محور

البحث الفلسفى سواء كان الأمر بالنسبة للسلوك الإنسانى العادى أو السلوك الابستمولوجى، والدافع وراء هذا عند الكثيرين، ومنهم كواين Quine وجير Giere هو أن الفلسفة عموماً ونظرية المعرفة خصوصاً عليها أن تتوقف عن أداء دور الناصح الأمين للنشاط العلمى الإنسانى، وتقنع بدور الوصف بدلاً من التحديد القبلى للمنهج العلمى ولعابير العقلانية دون أن تكون هذه الفلسفات متجاوبة بوضوح مع الممارسة العلمية الحقيقية.

والعلاقة بين تاريخ العلم وفلسفة العلم أصبحت فى هذا السياق على درجة كبيرة من الأهمية، فلم يعد النظر الى تاريخ العلم مجرد النقاط لنماذج جزئية منتزعة من سياقها الاجتماعى والتاريخى والثقافى، وتجريدها من هذا كله بحثاً عن مضمون منطقى أو منهجى لا أكثر، ويحدث فى معظم الأحيان أن يفرض هذا المضمون المنطقى على النموذج العلمى المعين. إن السياق العام الذى تولد فيه النظريات العلمية وتعيش زمناً ما طال أم قصر أصبح اليوم على درجة كبيرة من الأهمية بالنسبة لفلسفة العلم، وخير شاهد على ذلك كتابات توماس كون التى تؤسس لفلسفة العلم بناء على تفسير معين لتاريخ العلم، ولا تفرض فلسفة قبلية a priori على هذا التاريخ. وكذلك أيضاً دراسات فيرابند نفسه، بما فيها دراسته التى نهتم بها هنا والتى

يخصص أكثر من نصفها لتحليل نموذج تاريخي واحد هو الثورة الكوبرنيكية في الفلك.

وتعكس أطروحة فيرابند أيضاً، كما نوهنا سابقاً، الروح الليبرالية التي يبالغ صاحبنا في الالتزام بها. ولكن التأكيد على التعددية حتى في مجال المعرفة ونفى السلطة المعرفية للنموذج العلمي والمنهجى الغربى والإصرار على إتاحة الفرصة لكل الايديولوجيات المعرفية الأخرى، والفصل بين الدولة وكل ايدىولوجيا معرفية يؤكد التقاليد الليبرالية التى يستند إليها فيرابند ولذلك يعتبر أن السيطرة التى نجح العلم فى تحقيقها على مؤسسات الدولة خلال عقود طويلة بدءاً من القرن السابع عشر لم تكن فى صالح الإنسان. ولعل جهود فيرابند تبرز هنا تنافراً طريفاً بين انجازات الفكر السياسى وتراثه من ناحية وتراث الاحترام العميق الذى تكنه الثقافة الغربية للعلم، نزعتان متنافرتان تكشفان عن توتر عميق فى قلب المشروع الحضارى الغربى الذى نكتفى هنا برصده فقط.

إن فلسفة فيرابند وورثتى وأطروحات ما بعد الحداثة تعبير حاد عن أزمة الفكر الغربى، ونحن بالقطع لسنا بعيدين عنها، ولكن موقفنا الصحيح منها تمليه أزمئتنا الحضارية نحن، والتى تشكل أزمة الحضارة الغربية جزءاً منها وإن كانت لا تستغرقها. يقول فيرابند إنه لا مانع لديه أن يأتى زمن يحسن أن يتمسك الناس فيه بأهداب المنهج والعقلانية، وربما يكون هذا فى صالح التقدم بأى معنى من المعانى، ولكننا نقول إنه قد يأتى وقت يتمرء الناس فيه على العقل والمنهج والعلم، ولكن ليس الآن بالنسبة لنا لأنه لن يكون فى صالح التقدم.

المراجع :

- (1) Carnap, R. (1967). The Logical Structure of the World, trans. by R. George, University of California Press.
- (2) Feyerabend, P. (1975) Against Method, Verso Books.
- (3)..... (1978): Science in a Free Society, Thetford, Norfolk.
- (4) (1989): Farewell to Reason, Verso, London.
- (5) Hooker, C. A. (1991): Between Formalism and Anarchism: A Reasonable Middle Way, in Beyond Reason, edited by G. Munevar, Boston Studies in the Philosophy of Science, Vol. 132, pp. 41 - 107.
- (6) Horwich, p. (ed.) (1993). World Changes, Thonaus Kuhn and the nature of Science, A Bradford Book.
- (7) كون، توماس: بنية الثورات العلمية، ترجمة شوقي جلال، سلسلة عالم المعرفة، الكويت.
- (8) Lyotard, J. F (1985): The Postmodern Condition, English Translation, Manchester University Press.
- (9) Newton-Smith, W. (1981) : The Rationality of Science, Routledge.
- (10) Rorty, R. (1980): Philosophy and the Mirror of Nature, Princeton University Press.
- Sorell, T. (1991): Scientism, Routledge, London.
- (11) Roth, P. (1987): Meaning and Method in the Social Sciences, Cornell Unirersty Press.
- (12)Thagard, P. (1992): Conceptual Revolutions, Princeton Univevmty Press.
- (13) Woolgar, S. (1988): Science: The Very Idea, Ellis Horwood Limited.

رقم الايداع : ٩٦/١٥٥٤

هذه السلسلة :

سلسلة جديدة أشرف بتولى مسئوليتها، يتسع
موضوعها ليشمل محورين أساسيين لا غنى عنهما
لحياتنا المعاصرة: الفلسفة - العلم.. من الفلسفة
إلى العلم، ومن العلم إلى الفلسفة، تنتقل يوماً هذه
السلسلة في محاولة لصياغة رؤية جديدة تستهم في
صناعة العالم الفكري الذي يتجدد كل يوم.

هذا الكتاب :

المشكلة هي المنهج.. ذلك ما اعتقده وأقول به،
ليس فقط فيما يتعلق بالعلوم (الإنسانية) وإنما في
العلوم كلها؛ بل المنهج هو المشكلة المهمة في شتى
ضروب واقعنا المعاصر: فكريا واقتصاديا وسياسيا
 واجتماعيا.. وعلميا أيضا .
لذا كان هذا الكتاب.

د. يوسف زيدان